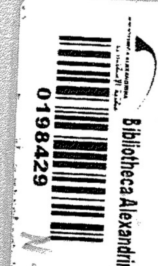
المكتبة الثقافية

١٦

اتحادنا
فلسفة خلقية

الدكتور ثروت عكاشة



المكتبة الثقافية
١٦

اتحادنا
فلسفة خلقية

الدكتور ثروت عكاشة



الناشر
دار القلم

دعوة إلى التفكير

ليس قصدى بهذا الكتاب أن أعرض للاتحاد القومي بتفسير أو أن أتحدث عن منظماته أو أن أعرّف الناس بحاجتنا المُلحة إليه فى حياتنا العامة ، بعد أن أصبح حقيقة من حقائق كياتنا ، تمليه روح الجماعة التى نحيا بينها .

ولكنى أقصد بهذا الكتاب ، أن يكون دعوة إلى التفكير فى هذا « الاتحاد القومى » وما يحمله من قيم ومعان ، يجمل بنا أن نتدبرها بين الحين والحين ، ليعمق فهمنا لها ، ثم ليعمق شعورنا بها .

والذين ناقشوا فكرة الاتحاد من قبل ، وعرضوا لمنظماته ، ووحداته ، ولجانه ، ومؤتمراته ، وناقشوا مكانه من حياتنا ، وهل هو حزب جديد أم لون آخر من ألوان التنظيم ، وناقشوا اصلته بالديموقراطية فى شتى صورها وألوانها . نعم إن الذين عرضوا لهذه الموضوعات جميعها ، وفّوها حقها شرحاً وإيضاحاً وتفصيلا .

وإذا تتبعنا مخلصين البيانات والخطب والأحاديث ، التى صدرت عن زعيم الثورة وبطلها الرئيس جمال عبد الناصر ، منذ ان اندلعت هذه الثورة فى ٢٣ يوليه ١٩٥٢ ، تكشفت لنا

فكرة « الاتحاد القومى » واضحة الوضوح كله ، فى ثنايا تلك العبارات المبينة التى كان يعرض بها مشكلاتنا الكبرى .

بل إن الوسائل التى طالعتنا بها الثورة فعلا بعد قول ، لتدل دلالة قاطعة ، على أن فكرة « الاتحاد القومى » كانت دوما من إملاء روح الجماعة ، يتمثلها مجلس الثورة فتدفع الخُطى إلى هذا الواقع الرائع الذى نحياه الآن .

ولكن كيف تأتّى لهذا الشعب الطيب الأعزل أن يصل إلى ما وصل إليه ، من سيادة وحرية ؟

وجواب ذلك هيّن سهل ، فإن هذا كله لم يكن ليتم لنا إلا « بالاتحاد » . ويوم اندلعت الثورة ليلة ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ لم يكن فى حسبان الكثرة من المتفائلين السياسيين أنها بالغة ما بلغت من نجاح ، لولا هذا الاتحاد ، وهو من صنع الله القدير الذى جمع قلوب الناهضين بالثورة وربط بينهم برباط من الإخلاص والتفانى .

ثم توالت الأحداث تباعا . يقيم كل حدث الدنيا ويقعدها، فتقف مذهولة أمام انتصارات هذا الشعب . ولقد فاتهم أن وراء ذلك قيما جديدة تتمثل فى : الاتحاد .

هذا الاتحاد ، هو الذى كفل لهم دائماً الانتصار فى كل معركة

خاضوها ضد القوى المستغلة فى الداخل ، أو المعتدية من الخارج .

فلم يعد ممكنا بعد أن ذاق الشعب حلاوة الاتحاد ، أن يقبل دونه بديلا . . .

كان هذا الاتحاد حلما ، طالما راود الشعب المتعطش إلى تحقيق آماله الكبار من الحرية والاستقلال .

وعندما أتيحت للشعب الفرصة ، لم يتوان عن أن يفرض الاتحاد على زعمائه ، يمليه تارة بصرخاته المدوية ، ويلوح به تارة مهدداً ، وتارة منذرا موعدا . وكانت للشعب تلك الوثبة القوية الجارفة التى لا تعرف المهادنة ولا الملاينة ، والتى نعرفها للبلاد عندما تواجه المحن والأزمات .

حدث هذا فى سنة ١٩٢٧ عندما فرضت إرادة الشعب الائتلافَ على الأحزاب المتنازعة ، لتقف صفاً واحداً أمام المفاوض الإنجليزى .

وحدث هذا فى سنة ١٩٣٥ عندما فرضت هتافات الشباب ، ودماء الشهداء على قادة الأحزاب والزعماء أن يؤلفوا الجبهة الوطنية ، فاضطروا إلى أن يسيروا صفاً واحداً فى تلك الجنازات التى آثر أصحابها الموت على الحياة ، دفاعا عن الشرف والعزة والكرامة .

وكاد يحدث شىء من هذا حين فرض الشعب على الحكومة

سنة ١٩٥١ إلغاء معاهدة ١٩٣٦ ، وحين فرض الشعب على الحكومة إعلان الكفاح المسلح ضد جنود الاحتلال الرابضين حول قناة السويس . . . لولا ما حاكته يد الاستعمار والخيانة والمؤامرة فأحرقت القاهرة قبل أن يتم هذا الاتحاد ، وقبل أن يصبح حقيقة فى القلوب وفى الضمائر ، تهز كيان الخونة والمستعمرين .

على أن تلك القوى التى تجمعت على مر أحقاب الكفاح ، ما كان لها أن تتبدد وتنتشر فى هذا اليسر الذى خاله المتآمرون فى حرق القاهرة .

وإذا ألسنة النار ، التى أرادوا بها حرق باكورة هذا الاتحاد ، تحرق أكفهم ، ثم تأتى على أجسامهم ، ثم تقضى على أمانيهم حين أرادوا القضاء على هذه الفكرة التى تخفق بها قلوب الملايين .

وإذا هذه القوى تتجمع كما يتجمع البخار المحبوس ، بعد غليان طال أمده ، لتطيح بهذا الغطاء الوهمى ، ولتطرح بعيداً ذلك القناع المصنوع . . . لتطل من ورائهما وجوه نحاسية سمراء ، لفحتها شمس الصحراء ، ولفحتها مع شمس الصحراء اللهفة على تحقيق ما تطلعت إليه القلوب من أمل ، وما افتقدته النفوس من ثقة ، وما راود الأفئدة من رجاء .

وكانت الثورة ، ولكن كيف كانت الثورة ؟ وكيف كان التمهيد لهذه الثورة ؟

* * *

أما عن الأسلوب الذى تمت به هذه الثورة ، والوسيلة التى نفذت بها ، والوقت الذى حدد لها ، والأسباب التى أشعلتها ، والمباغتات التى أحاطت بها . . . فهذه كلها أمور ينبغى أن تكون قيد الفكر ، وما بى رغبة فى أن أقص عليك حديث تلك الفترة التى هى من أجل فترات تاريخنا ، فأعيد عليك كلاما طالما تداولته الألسنة ، ولكنى أود أن أكشف لك عن تلك القيم الأخلاقية التى كنت وراء كل هذه الأحداث ، وحركت هذه الصفوف ، لتمضى إلى الموت ، من أجل توطيد أركان الحياة .

تلك القيم الخلقية ، هى التى ألهبت شعور الجموع ، وهى ترقب ما وصلت إليه حال البلاد من فساد وسوء ، فى السنوات التى أعقبت الحرب العظمى الثانية ، حتى اندلعت نيران الثورة .

والتى أثارت النفوس ، على ما كان يضج به المجتمع قبل الثورة من تناقض غريب فى الحياة ، معنى وأسلوبا .

والتى هيأت لكل تلك المنظمات السرية ، بين فئة قليلة

من ضباط القوات المسلحة ، عز عليهم أن تكون قوات الشعب ، في عون خصوم الشعب .

والتي جَلَت من نفوس تلك الفئة من الضباط الأحرار فجعلتها مرايا نقية صافية تعكس روح الجماعة بكل ما في روح الجماعة من دقائق ... تعكس الآلام كما تعكس الآمال ، وتعكس الدموع كما تعكس الابتسامات .

والتي دفعت الثورة بعد ذلك قدما ، تحقق من الأعمال في حين ، ما يستغرق إنجازه حياة جيل من الأجيال .



المجتمع قبل الثورة

وإنى على هذا غير راغب فى أن اكتب تاريخاً ، كما إنى غير راغب فى أن أروى أحداثاً معينة ، ولكنى أريد أن أعرض للظواهر الواضحة التى لونت ملامح المجتمع الذى كنا نعيش فيه قبل الثورة . . .

فبين الأفراد كنا نجد أشخاصاً ينعمون بكل ألوان الثراء والجاه والنفوذ والسلطان ، وكنا نجد فريقاً من الناس يعبثون بكل القيم ، ويسخرون من كل المقدسات ، ولا يتورعون عن كل ماهو مشين معيب .

وكنا نجد رؤوسا فارغة ، إلا من فعل الشراب ، ونزوات اللهو !

وكنا نجد أصابع عاجزة ، إلا عن توزيع أوراق اللعب فى أندية الميسر !

وكنا نجد أجساماً خاملة إلا عن الرقص الخليع ، حتى مطلع الفجر !

وكنا نجد أحاسيس جامدة ، إلامع العبث الصاخب واللهو الفاسد !

كنا نجد ذلك كله متفشيا كالحمى فى مجتمعنا قبل الثورة ، ولكن الشىء الذى كان يزيد الطين بلة ، هو أن هذه الرؤوس الفارغة ، وهذه الأصابع العاجزة ، وهذه الأجسام الخاملة ، وهذه الأحاسيس الجامدة ، هى التى كانت تتحكم فى مصير الناس ، إذ كان عندها من قوة الجاه والنفوذ والسلطان ، ما يجعلها قادرة على هذا التحكم ، فكانوا يلون الحكم هم أنفسهم ، أو يليه غيرهم عنهم ، وكانوا على حظ من الفطنة بالمنفعة وشعور بالمغنم يجعلهم متساندين ، مهما دب بينهم من خلاف ، ليحموا وجودهم الهزيل أمام جماهير الشعب الصاخبة من المحتاجين والمعوزين .

وإلى جوار هذا الرغد وهذه التخمة وهذا الإسراف ، كان هناك الشعب الطيب المسكين ، أو البقرة الحلوب ــ كما كان يقال . . . يرزح تحت وطأة المرض ، والفقر ، والجهل والحاجة ، والتضليل .

كان هذا الشعب هو الضحية لذاك الفريق من الناس لفرط ما امتاز به من طيبة وفرط ما امتازوا هم به من دهاء . ولطالما صدّق الشعب ما كان يسمعه من القادة والزعماء عن اتجاهاتهم الوطنية ،

وآمن بتلك الكلمات المدوية التى كانوا يصورون بها فعلهم ، وقد خدع مع هذا الشعب الطيب جملة من الأسر فى المدن والقرى ظن أربابها أنهم قادرون على أن يشاركوا فى الكفاح الوطنى بتكريم هؤلاء القادة والزعماء . وهكذا كان الشعب بمجموعه فريسة للتضليل .

ضللوه بالأحزاب ، وأوهموه أن الحزبية هى أساس الحياة الديموقراطية ، وضربوا له الأمثال من دول الدنيا ، دون ان يذكروا له الفروق الواضحة بين طبيعة حياته هو ، وطبيعة الحياة فى دول الدنيا هذه ، التى اتخذوها أمثلة حاولوا بها خداعه عن واقعه الرهيب .

وانطلت عليه الحيلة زمناً ، حتى انكشف له أمرهم ، فعرف أن الحزبية بلاء ، وفرض على الأحزاب أن تتآلف ، كلما أتيحت له الفرصة ، وكلما توفرت لديه الأسباب .

وضللوه بالانتخابات ، ليلهوه وليرشوه وليفرقوه ، ونجحوا فى خلق نوع من العصبيات ، لا يقوم على اختلاف فى النظريات ، ولا فى تقدير النفع العام ، ولكن يقوم على بث روح الفتنة وإشاعة الثأر .

وأخذت الأحزاب تنشّىء الناشئة على هواها ، دخلت على الطلبة حياتهم المدرسية ، ووصلتهم بها تغريهم بالانتماء إلى لجانها الحزبية ، وتنقدهم المال أجراً على ما يفعلون من اجلها ، وتلوح لهم بالوظائف المرتقبة ، وبالكراسى فى مجلس النواب بعد ان يتخرجوا فى مدارسهم ، إن قدر لهم ان يتخرجوا .

وعلى مر الأيام يصبح الحدث الصغير محترفا من محترفى السياسة ، ينخرط فى هذا الحزب أو ذاك ، لا سعيا إلى هدف وطنى بل جريا وراء غايات دنيا .

وكما أفسدته الحياة الحزبية صغيرا تفسده كبيرا ، وإذا دنياه التى كانت بالأمس القريب لا تتجاوز فى الافساد غيره وغير نفر قليل من الناشئين حوله ، تصبح دنيا أخرى أفسح آماداً وأوسع آفاقا ، دنيا لا تمت إلى الصلاح بصلة ولا إلى الخير بقربى ، ولكنها دنيا الرشوة وإفساد الذمم وإرهاق الضمائر والعبث بالإرادات .

وإذا أمر الناس من حولهم فوضى لا مجال فيه لذى خلق ولا موضع فيه لمن يرجو لبلده خيرا

وإذا الحياة بيع وشراء ؛ والخاسر الوطن ؛ والمجنى عليه الأخـلاق .

وإذا الناس أحزاب على الكراهية والنفرة ، لا على الألفة والمحبة ، أحزاب تبيت وتصحو على التآمر والمغانم ، لا على نفع الوطن ونفع أبنائه . وإذا المستعمر وكل غانم من وراء هذا كله يذكيه ويشعله ليبقى هؤلاء الناس مشغولين بأنفسهم مشغولين بالفتنة ، ويخلو الجو للمستعمر يحقق مايريد من بسط سيادته ، كما يخلو الجو لكل غانم يجمع ماوسعه الجمع من غنم .

* * *

ولو أننا تركنا الأحزاب ، على الرغم مما كانت تصور من فساد خلقي كان له أكبر الأثر في الأجيال المتعاقبة من أعضائها .

لو أننا تركنا الأحزاب ، في هــذا المجتمع الذي كان قبل الثورة ، لوجدنا إلى جوارها منظمات مختلفة ، وجماعات ، وهيئات تدور كلها في نفس الدائرة وتنتهي إلى نفس النتيجة ، حتى تلك التي كانت تبدأ ثائرة على الأوضاع ، منكرة لهذه الألوان من الفساد والإفساد ، معلنة برامج براقة هدفها الإصلاح .

كانت هذه الجماعات والمنظمات والهيئات تجد نفسها مضطرة أمام المنافسة التي تواجهها من الأحزاب ، إلى أن تنهج النهج نفسه ، وتسلك الطريق نفسها ، لينتهي أمرها أخيراً إلى الوضع عينه الذي قامت لتقاومه أو تقومه .

وما كانت تستطيع ان تفعل شيئاً غير هذا ، إذ أن الهيئة التى كانت تنتظمها كان طابعها الانتهازية ، والفردية ، ورعاية المنافع الخاصة ، وتضليل الجماهير باسم النفع العام ، لتستر سوآتها ، ولتدارى قدر ما تستطيع عيوبها .

ومن هنا استشرت النفعية فى مجتمع تلك الحقبة ، وتعددت الأشكال التى اتخذتها لنفسها ، وكان أظهر هذه الأشكال هو الأحزاب .

ولنتصوَّر مجتمعاً هذا طابعه ، يسعى لتحقيق السيادة ، وانتزاع الحرية والاستقلال من بين مخالب المستعمر ، مجتمعاً يريد أن يمكّن لنفسه من أن يسود ؛ ولأمته من أن تتحرر ، ولبلده من أن يخطو إلى الأمام .

ترى هل كان يقدر لمجتمع هذا شأنه وتلك روحه وذلك نظامه وطابعه أن يحقق شيئاً مما يريد ، وفيه قادة يتفاوضون باسم الأمة ، تحركهم المصلحة ، والحرص على المنافع الشخصية ، واسترضاء القصر من جانب ، وممثلى الاستعمار من جانب آخر ، ويحاولون أن يظهروا برغم هذا أمام الجمهور العام ، بمظهر الأبطال المكافحين .

أكان يحق لنا أن نتصور أن هذه الوسائل كانت تجدى ؟

لقد كان المفاوض البريطانى نفسه يعرف هؤلاء الذين يجلسون أمامه فى الجانب المقابل من منضدة المفاوضات ! كان يعرف أهدافهم وأسرارهم وأخلاقهم . . .

والقصر كان يملك القدرة على أن يملى إرادته .

وأصحاب المصالح الكبرى ، كانوا يملكون أن يشتروا بالمال أصحاب الصيحات العالية التى تهدد وتنذر ، فإن لم يجْدِ المال ، فهناك أكثر من وسيلة للإغراء .

كان طبيعيا أن يكون مصير كل مفاوضة إلى الفشل ، وأن يستمر الاحتلال البريطانى للبلاد من سنة ١٨٨٢ ، حتى سنة ١٩٥٤

وكان طبيعيا ألا يختفى هذا الاحتلال ، ولا يحمل عصاه على كتفه ويرحل ، إلا إذا تغيرت الأخلاق ، وتغير المذهب الخلقى الذى يدين به القادة أولا ، ويدين به من ورائهم أولئك الذين يتعاونون معهم فى هذا الميدان العام .

وهكذا كانت تدار أمور الدولة وتساس ... وهكذا كان يخدع الشعب ويضلل .

على أن كل هذه الأمثلة لم تكن لتدل إلا على فساد الذمة ،

وفساد الضمير ، فى هذا المجتمع الذى عاش قبل الثورة . وفى معنى آخر ، على انهيار الخلق واختفاء القيم بين الأفراد الذين يمثلون الطبقة المترفة الفارغة الرؤوس المتخمة البطون، وبين الجماعات التى كانت تعيش ناقمة على هذا التفاوت البشع بين الطبقات يسخرها الطمع والحقد ويتخذها المغرضون آلة فى أيديهم .

من أجل هذا ، طغت على البلاد موجة من اليأس ، كادت تقضى على ما فيها من عناصر المقاومة ، وسرت فى النفوس موجة من التشاؤم ، كادت تحطم ما فيها من مقومات .

وترددت الصيحات : ألاّ فائدة فى ظل هذا النظام .

ولئن كانت طبيعة ذاك المجتمع ، قد اقتضت أن تحكم البلاد من النوادى الليلية ومن القصور العابثة ، ولئن كانت طبيعة ذاك المجتمع ، ألاّ يُحسب حساب للأخلاق ، فلم يعد الشرف أو الضمير أو الكرامة ، إلا كلمات فارغة لا تحمل من معانيها إلا عكس ما تدل عليه ؛ ولئن كانت طبيعة ذاك المجتمع ، قد جعلت سيد القصر — القصر الكبير والقصور الموالية له — عبداً لشهواته . وجعلت الحكام وزعماء الأحزاب عبيداً لهذا السيد ، وجعلت طبقة المنتفعين من كبار الموظفين .وذوى المصالح عبيداً

للحكام وزعماء الأحزاب ، واستكملت الدائرة شكلها ، فتناوب الجميع المصالح ، وتبادل الجميع المنافع ، فإذا الجميع عبيد . . . هدفهم جميعاً الشعب المسكين ، يحاولون أن يستنزفوا دماءه باسم الصالح العام ، مستغلين وسائل المكر والخداع والتضليل .

لئن كانت تلك طبيعة ذلك المجتمع فقد كان هناك الشعب دائماً ، والشعب هو الفلاح ، الذى سخر من كل المستعمرين بابتسامته الممتزجة بالطيبة والحرص معاً . . . وبصمته العميق الهادىء ، يستر به ما تنطوى عليه نفسه من الألم والثورة . ويصطنع الموافقة الخادعة ، إزاء مايسمع من وعود ، إمعانا فى السخرية والاستهزاء .

هذا الشعب كان يعرفهم ، وكان يحتقرهم ، ويعجب لهم كيف يمضون فى الحياة ، يلبسون كما يلبس الناس ، ويأكلون كما يأكل الناس ، ويشربون كما يشرب الناس ، ويتنفسون كما يتنفس الناس . . على حين أن لباسهم لا يستر ، وطعامهم جمر ، وشرابهم سم ، وأنفاسهم من مس شيطان رجيم! .

مهما كان للشعب قدرة على الصبر ، فإن للصبر دائماً نهاية ...

ولقد عجز هذا الشعب عن أن يمضى صبوراً لا يتحرك بالثورة على هذا الفريق الجبان المغرور ، الذى استمرأ المرعى ،

فظن أن كل من فى المرعى قطعان ، وأنه وحده الراعى صاحب الحقول الذى لا يُنال .

لقد كانت الطريق تكاد تكون مرسومة لإفساد النشء تتولاهم بالإفساد صغاراً لتضمنهم على هذا الفساد كباراً .

فاذا ما شب الفتى وجد حياته المدرسية صورة من حياة الرجال خارج المدرسة ، هنا هيئات حزبية وهناك هيئات حزبية ، وكما تضم الهيئات الحزبية الكبار خارج المدرسة تضم الهيئات الحزبيـة الصغار داخل المدرسة ، وكما تثور الحرب المفسدة المفرّقة بين الهيئات الحزبية خارج المدرسة تثور الحرب المفسدة المفرقة بين الهيئات الحزبية داخل المدرسة ، وإذا هؤلاء الصغار الأبرياء قد لقنوا الخصومات فى أبشع صورها ، فقسا بعضهم على بعض فأفحش ، وآذى بعضهم بعضا فأمعن .

والأحزاب من خلفهم تغرى بينهم ، وتوسع لهذا الخلاف فى صفوفهم ، وتغرس الحقد فى قلوبهم .

وينشأ الناشىء مأجوراً بقلبه ولسانه ويده ، حيث كنا نريده مالكا لقلبه ولسانه ويده ، يتقاضى أجر ذلك كله :

مالا فيفسد ضميره ،

وصلة بأصحاب الجاه فيفسد عقله ،

وتمكيناً له من الوساطة فتفسد ذمته ،

حتى إذا ما لفظته المدارس أو لفظ هو المدارس أفسحوا له فى الوظائف ليتجر بمركزه فيها ، وأفسحوا له فى مقاعد النيابة ليستنزف أموال الفلاحين باسمها ، ثم أفسحوا له السبيل إلى كراسى الحكم ليصول ويجول ، وليركب الناس باسم السلطان ويحقق ما يشاء .

وما من ناشىء رأى هذا وعاش فيه إلا تاقت نفسه إليه ، إلاّ من عصمه الله بعاصم من خلق قوى ونفس قويمة وعقل واع وضمير حى .

إلا أن المجتمع مع هذا الفساد لم يخل من نماذج إنسانية ، لم تضللها محاولات القادة ولم تغرها مغريات الأحزاب ، ولم تفسد صحة أحكامها الوطنية الهتافات المصنوعة ولا المظاهرات المفتعلة .

وظل فى المجتمع فريق من الشباب ، يحتفظ باستقلال شخصيته ، ويحافظ على كبرياء تفكيره ، وبقى على طهارة ضميره ، فلم يجرفه التيار .

من يدرى ؟ ربما كان ذلك من صنع القدر ، فقد لعب هذا الشباب فيما بعد دوراً إيجابيا واضحاً فى توجيه دفة الأمور .

* * *

وكان فى طليعة هذا الجيل من الشباب زعيم هـذه الثورة وبطل العرب ، الذى جاد به الزمن بعد يأس وجدب .

امتحنه القدر وهو فى الثامنة من عمره فغيب عنه أمه ، أعوز ما يكون هذا الصغير إلى حنان الأمهات ، وأحوج ما يكون إلى الأنس بهن . ولكن القدر الذى ابتلى قلبه بتلك أراد أن يهيء قلبه لأخرى .

فلقد ارتد هذا الصبي حزيناً مهموماً ، وإذا هذا كله يدفعه إلى العزلة دفعاً ، وإذا هذه العزلة التى أراد أن يخلو فيها إلى همّه تمهّد له الخلو إلى نفسه ، ترخى لفكره أن يتأمل ولعقله أن يتدبّر ، ثم تهيئه آخر الأمر جلداً صبوراً ، يحمل الألم وحده ويقوى عليه وحده .

وهكذا أخذ منه القدر وأعطى ، ومضى هذا الصغير بهذا القلب ليعيش فى ظل عم له بالإسكندرية حيث المدارس ؛ بعيداً عن أبيه الذى كان فى بيئة تعوزها المدارس . وكأنه أريد له بهذا البعد عن أبيه أن يلقن الصبر إلى غايته لشيء أراده الله .

* * *

ودخل هذا الفتى إلى حياة الناس شابا فى الثانية عشرة من عمره ، يعرف الهمّ لأنه قد ذاقه ، ويعرف الصبر لأنه قد قوى له

واشتد . فإذا دنيا الناس همٌّ بما تعانى من ظلم كثير ، يسوق المستعمر منه شيئاً ، ويسوق الحاكمون المختلفون على أنفسهم منه شيئاً . فلم يجزع ولم يهن .

وإذا دنيا الناس مثقلة بالمحن والمصاعب ، وهم بين يديها حيارى مضطربون ، فلم ييأس ولم يقنط . اندفع يشارك فى المظاهرات وكان ذلك فى سنة ١٩٣٠ يدفعه إلى ذلك إيمانه بأن الحياة فى حاجة إلى من يؤمن بالعمل الإيجابى لا العمل السلبي وأنها للشجعان لا للمتواكلين مهما لقوا فى سبيل ذلك من دم ينزف أو روح تزهق .

ويكبر الفتى شيئاً ، فاذا هو يرى حياة الناس ليست لهم ، وإنما هى ملك لأهواء الحكام يلعبون بها . فيحس قلبه خطبا كالذى منى به من قبل ، فتجذبه العزلة إليها جذبا ليقرأ ، إذ كان قد بلغ أن يقرأ . ثم تجذبه حياة الناس إليها جذبا فيخرج إليهم من عزلته ليعرف عنهم ويشاركهم ما هم فيه ، إذ كان إحساسه إحساسهم ووجدانه وجدانهم وقلبهم قلبه ، وهم منه الأهل والعشيرة ، والوطن الشاكى الصاخب بفساده قبلتهم جميعاً .

وكان على صلة بالقراءة حين يخلو إلى نفسه يقرأ فيستفيد ، وعلى صلة بأترابه من الفتيان حين يخرج إليهم فيأخذ

فيما يأخذون فيه من لعب تمليه طبيعة ذلك السن وتضفى عليه روحه المرحة جوا ترتسم فيه شخصيته .

وهكذا اجتمع لهذا الشاب الناهض علم وقلب .

علم بحال وطنه وما يعانيه سواد الشعب من بؤس وشقاء .

وقلب قد جرب الألم صغيرا وأحس وقعه مبكرا ، وشعر بآلام الناس كبيرا ففاض قلبه لهم مشفقا .

قلب قد علم الصبر صغيرا فلم ينسه كبيرا .

وبهذا العلم وذاك القلب دخل الفتى حياة هذه الأمة المغلوبة على أمرها ، الذليلة بفرقتها ، المهينة بملكها وحكامها ، فكان حقا الثائر الذى يملك أسباب الثورة :

من ألم قد أورث غضبا لن يهدأ .

ومن صبر قد ألهب عزما لن يلين .

* * *

ولقد كان يصبو إلى أن يشق طريقه إلى المحاماة إذ كان يرى فيها الطريق لتحقيق تلك الأحلام التى كانت يجيش بها صدره فى سبيل إعزاز مواطنيه والبلوغ بهم إلى غايتهم المنشودة من استقلال وحرية وعدالة اجتماعية ومساواة ، غير أن القدر الذى وجهه صغيرا لم يتركه حين شب ، وفتح أمامه طريقا أقصر

لبلوغ هذه الغاية . ويدبر الفتى ، ويدبر القدر ، وإذا الفتى يسلك ما أراد القدر لأن فيه النفع والخير لهذه الأمة .

وهكذا كان جمال عبد الناصر ، الطالب والضابط بعد ذلك ، هو المثل الفريد ، الذى يمثل هذا الجانب المشرق من حياة الشباب فى ذلك المجتمع الذى كان قبل الثورة .

كان طالباً فى الإسكندرية والقاهرة ، من بيئة متوسطة، يشارك فى كل ما هو وطنى بكل ما يستطيع من طاقة وجهد .

ولكنه مع ذلك لم ينخدع ولم يضلل ، فما إن كانت مشاركته فيما يشارك فيه تنتهى ، حتى يعاود حياته ، فى مدرسته ، وبين أفراد أسرته ، يحاول أن يعوض ما تغفله مقررات المدارس من دروس ، فيقرأ ما لا يتاح له أن يقرأه فى المدرسة ، وعن طريق هذه القراءات كان يكسب كثيراً من المعرفة ومن العلم بدقائق الأسرار التى مرت بها بلاده .

فلما أصبح ضابطاً من ضباط القوات المسلحة زادت صلته بالأحداث من دراساته ومن اتصالاته ، ومما كان يجرى حوله داخل القوات المسلحة وخارجها .

ونمت فكرته مع الأيام بما تحمل من صعاب ، وكان لاتجاهه

الجاد نحو الدراسة العميقة أثره عليه ، كذلك كانت صلاته بمجتمعات الشباب ممن يتوقون إلى خدمة بلادهم فى صدق وأمانة من الأسباب التى هيأت له من المزايا مالم يتهيأ لسواه .

هذا مثل ... للجانب المشرق لحياة الشباب فى المجتمع الذى كان قبل الثورة .

شباب عز على الفساد ، واستعصى على المفسدين .

ولقد كان هذا المثل من الشباب ، مقدمة لظاهرة جديدة فى المجتمع .

ولقد ظهرت بوادر الثورة مكبوتة أول الأمر ، ثم صامتة بعد ذلك ، ثم ظهرت لها أمارات توحى بالانفجار .

على أن الذين كانوا يدورون فى فلك الحكام ، ويستغلون شهواتهم للعمل على أن تدوم هذه الحال ، كانوا يؤكدون لهؤلاء الحكام أنفسهم أنه مادامت القوات المسلحة تقف إلى جوارهم ، وما دامت فرق الشرطة المختلفة تسند ظهورهم ، فإن الخطر بعيد منهم بعد الأرض من السماء .

هكذا كانوا يقولون ... لأن وهمهم البليد صوّر لهم أن نجاحهم فى القضاء على الأخلاق بين أبناء طبقتهم ، أدى إلى انهيار أسس الأخلاق جميعاً ، بين أية فئة ، وبين أية مجموعة من الناس .

وكان إضراب رجال الشرطة لأول مرة فى تاريخ قوات الشرطة ، واعتصام الضباط فى ناديهم بحديقة الأزبكية ، نذيراً رهيباً ، كان يكفى للدلالة على خطورة ما أصبحت عليه الحال . ولكن الذين أصم الوقر آذانهم ، لم يكونوا على استعداد لسماع أى صوت ، ولو كان هذا الصوت رعداً ! .

وخلال هذا ، كانت هنالك يقظة خلقية جديدة . . . فى محط الرحال ، فى القوات المسلحة ، وبين الشباب من الضباط .

لقد امتحن الجيش فى فلسطين ، فذهب إلى الميدان ، ليعيد السلام إلى أرض السلام .

ولكن الامتحان كان عسيراً ، كان شيئاً أقرب إلى المحنة ، منه إلى الامتحان .

فقد أراد الذين تخصصوا فى التضليل أن يضيفوا خدعة جديدة إلى ما ابتدعوا من خدع كثيرة .

وحينما أحسوا أن هناك انتفاضة شعبية تتجه نحو فلسطين ، وإنقاذ أبنائها من خطر الصهيونية الدولية المتآمرة ، فعلوا مافعله معهم الشعب ، حين التقط منهم الكرة فى براعة ، ليقذفها فى وجوههم . . . التقطوا هم هذه المرة الكرة من الشعب ،

واستغلوا انتفاضته ، ليضيفوا خدعة جديدة إلى ماضللوه به من خدع ، فأرسلوا الجيش إلى فلسطين ، ووضعوه أمام النار ، بلا نار ... ولا ماء يخفف به من لهيب النار ! .

وبرغم هذا فقد اندفع يحفر تاريخ مجده بأظافره ، ويفتك بالصهيونية المتآمرة ومستعمراتها فى فلسطين .

فلما كاد أن يحقق الأمل ، صاحوا به : قف : ... لقد قبلنا الهدنة .

وفسرت الأحداث بعد ذلك كيف كانت الهدنة تمكينا للصهيونية من الاستعداد والتسلح واستعادة ما فقدت من قوى بددتها المفاجأة والهجوم الرائع لذلك الجيش الظافر ، وما كانت عدته غير نفايات مما خلفته ميادين الحروب ! .

وخرج الجيش من هذه المحنة بفلسفة جديدة ، وبأخلاق جديدة .

حياة الصحراء والجبال والاغتراب .

التضليل والاستغلال والاتجار باسم الشهداء والمعذبين من اللاجئين .

شبح الموت ، يطل بين كل لحظة وأخرى على هؤلاء المحاربين ، ليختطف من بينهم واحداً ، له ولد رضيع ، أو طفل

يحبو ، او زوجة سوف تصبح فى غمضة عين أرملة ، أو أم سوف تصبح فى سرعة البرق ثكلى .

والذين يتاجرون بهم ، ويتوارون خلفهم من هول الرعب، لم يتخلفوا ليلة واحدة عن نواديهم الليلية ، ولم يتغيبوا لحظة عن حياة الليل وما تمتلىء به من مجون سافر وعبث صاخب .

وكان الذين يتولون أمر هذه القوات ، وهى ترابط أمام الموت، يتاجرون فى السلاح ، ويعقدون الصفقات ، ليضيفوا إلى ثرواتهم أكبر قدر يستطيعون ، من جماجم الموتى ، ودماء الشهداء ودموع اليتامى والثكالى والأرامل ! .

حتى إذا ما رأوا أنهم مفضوحون ، وأن الناس باتوا بخداعهم عالمين أخذوا ينشرون غطاء كثيفا من التضليل ، فجعلوا يهللون للأبطال ، وللانتصارات وللجنود الشجعان ، ويوارون أجداث الشهداء بالدموع والدعوات حتى لا تظهر الحقائق البشعة ، فتعود هذه القوات ناقمة عليهم فاتكة بهم .

* * *

وأمام هذه العوامل جميعاً ، نشأت بين أفراد القوات المسلحة روح جديدة ، أيقظت فيهم عناصرهم الأصيلة : القيم والمثل والإيمان والفداء .

وتساءلوا: لماذا خلق الله الناس ؟ .

ألم يخلقهم لينعموا بما فى الحياة من خير وحق وفضيلة !.

ألم يخلقهم ليحققوا السعادة لأنفسهم وللآخرين ، فينشأ مجتمع فاضل متكافىء ، تتساوى فيه الفرص ، وتتاح لكل منهم الفرصة ، ليأخذ فى سبيله ، دون عوائق أو عقبات من صنع الأهواء ؟ .

وكيف يتحقق هذا كله ، ما لم يسد بين الناس سلطان الضمير ، وسلطان الأخلاق ؟ وحول هذه الفلسفة الخلقية ، التقى الضباط من البطاح ، والقمم والسفوح ، وتنادوا بالعزة ، وبالكرامة ، وبالعمل الصالح ، من أجل المجموع .

وبهذه الفلسفة الخلقية ، آمن الضباط ، وعليها أقسموا أن يعملوا لتأكيد معانى الحياة ، ولو دفعوا فى سبيل ذلك ما يملكون هم من حياة .

وتكون تنظيم الضباط الأحرار ، داخل القوات المسلحة .

ولولا هذه الفلسفة الخلقية التى سرت فى النفوس مسرى الإيمان والعقيدة ، لكان من المستحيل أن يتكون هذا التنظيم.

ففى جو الفتن والمؤامرات وسيادة المصالح والصفقات . . . وفى جو الانتهازية المسرفة فى الضلال . . . وفى جو الفردية

النهمة التي تسعى إلى الغلبة والانتصار بأي سلاح ... وفي جو الرقباء والجواسيس ، والرشاوى الطاغية ، وشراء الضمائر والذمم ... وفي جو العيون المتفتحة ، ترقب كل حركة ، وفي جو الآذان المصيخة تعد على الناس أنفاسهم ... وفي جو الحكم الذي لم يكن له غير القوات المسلحة تحميه ، ضد الشعب الساخط الثائر على الأوضاع ... وفي جو الأحزاب واستعدادها لتقديم فروض الطاعة والولاء لتحكم ، ولتحقق من الحكم المغانم والأرباح .

وفي جو الاحتلال الجاثم على الأرض الطيبة ، ينثر بذور التفرقة بين الطبقات ، ويتصيد في الماء ، بعد أن يصبح هذا الماء عكراً ، وفي جو الهزيمة التي مني بها العرب في فلسطين ، أمام عصابات تساندها المؤامرات من كل جانب .

في هذا الجو من الرعب الأسود ، كانت المغامرة على القيام بأي دور إيجابي للخلاص ، محفوفة بالخطر من كل جانب .

والعملاء الذين يعملون لحساب الرجعية لا ينقصهم دائماً الذكاء ، وإن يكن ذكاء الشر والأنانية . ولكنه ذكاء على أية حال !

وإن ذكاءهم ليدفعهم إلى الوقوع على العناصر الثائرة ، ومحاولة استرضائها بكل سلاح : بالترقية ، بإغراء المنصب والمال . . . بالفتن الرخيصة المبتذلة .

فلم يبق إذن إلا شىء واحد يمكن أن يعصم من يقدم على هذه المحاولة فى هذا الجو ، وحوله هذه المغريات .

شىء واحد ، هو التذرع بأخلاق تعلو عن هذه العوامل جميعاً .

وأن تكون الثورة الخلقية أصلب من أن تندك تحت طرقات المطرقة ، أو أن تلين بنار الفتنة والإغراء ، أو أن تنحرف بتأثير بريق النفوذ والجاه ، أو أن تحيد بتأثير المنصب والسلطان .

ولقد مارس الضباط الأحرار ثورتهم الخلقية الجديدة ، ومروا بتجارب مختلفة . ولعل الأسلوب الذى اتخذوه لأنفسهم ، كان أسلوبا أقرب إلى أساليب تدريب النفس وحملها على أن تعتاد المقاومة فى أقسى الظروف ، وأن تثبت على الإصرار فى أشد حالات الإغراء ، وأن تتظاهر رغم عظم العمل الذى تستعد له ورغم خطورته ، بأنها عناصر طيبة ساذجة . ليس لها فى أمر جاد أدنى نصيب .

وكان لابد من توفر أواصر معينة تشد هذا الفريق بعضه إلى بعض ، فتقوى ما بين أفراده من صلات ، وتضاعف ما بينهم من فهم وتفاهم ، وتؤكد بينهم نوعا من الحب ، يجعلهم على استعداد

لأن يفتدى كل منهم أخاه بالروح ، إذا لم يكن غير الروح فداء .

إن تاريخ الضباط الأحرار قد نشر من قبل ، من حيث التنظيم ، أما هذا العامل النفسى ، فلم يوضح بعد .

المبادىء الخلقية التى آمن بها الضباط الأحرار ، والرابطة الخلقية التى ربطت بين هذه الفئة القليلة ، من أفراد التنظيم السرى الخطير ، فهيأت لها نوعا من القوة كفلت لها النصر وحققت لها ما كانت تصبو إليه .

وإذا كان لى أن أكشف اليوم عن بعض جوانب هذه القيم ، فإن الأمانة تقتضينى أن أشير إلى الرجل الذى رعا هذا الجانب منذ بدأ التنظيم ، بالحب والحدب والحنان ، حتى نما واشتد ، وأصبح قوة صامدة ، تمضى إلى الأمام ، ولو بين ألسنة النيران .

جمال عبد الناصر كان هذا القلب الكبير الذى علمنا الحب ، ورعاه فى قلوبنا وسهر عليه ، حتى أصبح رابطة أكيدة تجمع صفوفنا ، وتحمى وحدتنا .

ولو أننى عدت إلى تفصيل ذلك ما انتهيت ، وسأكتفى بذكر سطور قليلة عن الأسلوب الرفيق الذى تمثله جمال عبد الناصر ، فى دعم هذه الفلسفة الخلقية بين الضباط الأحرار ، وتقوية روابط الحب والود بين أفراد هذا التنظيم الخطير .

كان جمال عبد الناصر يعتبر التنظيم وحدة متكاملة ، ومجتمعا يجب أن يتضام وأن يتساند فيه الأفراد فى الشدة وفى الرخاء ، حتى يتوفر لهذه الفئة القليلة المكافحة كل ما تتطلع إليه من رغبات .

فالذين كانوا فى حاجة إلى التجربة ، كان يعوضهم هو عنها ، بماله من تجارب ؛ والذين كانوا يتوقون إلى معرفة مالا يعرفون ، كان لهم نعم المعين على ما يتوقون إليه ، والذين كان يعوزهم الأهل والولد والصديق كان هو وزملاؤه لهم الأهل والولد والصديق .

كان دائما فى عون هذه المجموعة من أفراد التنظيم فى هذا وفى غيره .

ففى المرض ، كان يسعى إلى توفير العلاج والدواء للمريض ، وفى الحاجة كان يبحث لهم عما يسد به حاجتهم مهما عزت .

هل أذكر أن جمال عبد الناصر ، كان يبحث للمدين ، عن طريق لسداد دينه ، وإقالته من عثرته ؟

وهل أذكر كذلك أن جمال عبد الناصر كان فى سماحته مضرب الأمثال بين إخوانه ، فقد كان يتلمس العذر لكل منهم ،

إذا هذا أو أخطأ ، وكان يبحث له عن طريق يصحح به خطأه ، طالما كان الخطأ لا يمس الشرف والوطن .

وأمثلة كثيرة مختلفة ، تقوم كلها دليلا له على دعم القيم الخلقية بين الضباط الأحرار الذين عادوا من محنة فلسطين .

ولقد ظلت هذه الميزة تميز جمال عبد الناصر حتى اليوم ، فهو نفسه ، برغم مسئولياته ومشاغله ، الذى يسأل عن أصدقائه ، وهو الذى يعرف حاجاتهم ومشكلاتهم ويحاول معهم أو دونهم أن يجد لها الحلول .

وأبناء الشهداء الذين سقطوا فى ميادين الشرف ، وفقدوا آباءهم ، لا يحسون أنهم فقدوهم ، لأن جمال عبد الناصر كان ولا يزال يقف منهم موقف الأب البار الرحيم .

وحتى خصومه فى الرأى ، سريعاً ما يتسامح معهم ويبحث عن حل لمشكلاتهم .

لأنه يؤمن بالقيم الخلقية التى كسبها من حياته الماضية ، ومن مظاهر الإنسانية المتأصلة فى شخصه ، ومن المجتمع الطاهر النقى الذى جمعه مع إخوانه داخل القوات المسلحة .

لقد أخذ نفسه بما يحب لها ، وأخذ إرادته أن تسمو على

الصغائر . مهما كان لهذه الصغائر من أثر فى نفسه . وكان يخرج من مثل هذا النزاع النفسى بأحكام عادلة منصفة . . . دون مرارة .

ولقد كانت لهذه القيم فائدتها لأفراد التنظيم نفسه ، إذ ربطت قلوبهم برباط من الحب والمودة ، كما كانت لها فائدتها كذلك فى تعويض « المجتمع قبل الثورة » عمّا فقده فى ظل الطبقة الانتهازية من أخلاق .

وحينما واجه التنظيم — قبل أن يستكمل عدته — إلغاء المعاهدة سنة ١٩٣٦ ، وواجه كذلك موجة شعبية جارفة ، حاول جمال عبد الناصر أن يجعل من هذا الإلغاء حقيقة واقعة من حقائق الكفاح المسلح ضد الاستعمار .

وكان لا بد للتنظيم من دور إيجابى فى هذه المعركة ، ليؤدى واجبه المقدس أولا ، وليستفيد أفراد التنظيم من التجربة قوة جديدة .

ودخل التنظيم المعركة بالفعل ، فأخذ الضباط الأحرار ينظمون قوى الفدائيين ويدربونهم ويسلحونهم ، ويشتركون معهم فى المعارك دون أن يدرى أحد .

وهال جنود الاحتلال أن يكون الفدائيون على هذا المستوى من التدريب ، ولم يكن أحد يعلم أن وراءهم الضباط الأحرار .

وهكذا أخذ التنظيم الناشئ يستفيد من كل ظرف ، لا اتهازاً لفرصة أو لمغنم ، فقد كانت كل هذه الفرص تضحيات ، ولكن ليعد نفسه للدور الخطير المرتقب .

وبهذا تكونت فى المجتمع قبل الثورة طبقة جديدة ترسى أسسها على الأخلاق .

ففى جانب من جوانب هذا المجتمع ، كانت طبقة الانتهازيين تمثل الجانب المسرف فى الانهيار الخلقى .

وفى الجانب الآخر ، كان تنظيم الضباط الأحرار ، يمثل الجانب الممعن فى اعتناق المبادئ الخلقية التى تحمى وجوده بقوة مذهبه الجديد .

والفرق بين الجانبين ، أن الجانب الأول ، كان هو الجانب اللامع ، الذى يعيش تحت أضواء مسلطة عليه من كل ناحية . . . الصحافة تنشر عنه والسينما تعرض عنه الصور والإذاعة تحمل عنه النداءات والأحاديث .

أما الجانب الآخر ، فقد كان هو الجانب غير المرئى . . . أو غير المعروف .

جانب يعيش ليحمى غاياته الكبار باصطناع السذاجة ، ويصون أغراضه القومية الخطيرة بالحب ، والود ، والتساند ، والأخلاق .

وبين الجانبين شعب يكظم الغيظ ، ويكتم الثورة ، ويتحين الفرصة لينتفض ويثور .

وحان الحين ، فاندلعت ثورة الأحرار ، وأصبح ما خفى حقيقة تعلن عن نفسها فى عزة وكرامة وكبرياء .



ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢

هل تذكرون الساعات الأولى للثورة ؟
وهل تذكرون منتصف ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ؟
عندما بدأت القاهرة تحس أن هناك حركة ما ، فى منطقة العباسية ، وعندما بدأ الناس يرددون أن الضباط يتجمعون فى معسكراتهم . . .

هل تذكرون هــذه اللحظات ؟ لقد عاشت القاهرة ليلتها ساهرة ، لم يغمض لها جفن ترقب ماذا عساه يحدث !

أهى حركة الشعب ؟

أهو تعبير عما فى النفوس من انتفاضة مكتومة ؟

أم إنه شىء آخر ، وحركة أخرى ضد الشعب ؟

على أن الشىء الذى كان يطمئن قلوب الذين أحسوا هذه التحركات الخفية ، فى الساعات الأولى من نهار ٢٣ يوليو ١٩٥٢ هو أن الأحداث السياسية وتصرفات الحكام كانت كلها تشير إلى أن الفجر قريب ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها .

وأخذت القاهرة تردد ليلتها الدعوات ، أن يأتى الصبح بجديد ، يزيح الكابوس الثقيل من فوق الصدور .

وأتى الصبح فعلا بجديد . . . ببيانات الثـورة الأولى ، تؤكد أن القوات المسلحة ، باتت قوات الشعب ، تعمل لمصلحة الشعب .

وانطلقت الزغاريد ، تختلط بالدموع ، وتصايح الناس بالتأييد. فلما كان أول استعراض عسكرى فى القاهرة ، شهدنا الناس يقبلون على المدافع والدبابات يقبّلونها ، ويبللونها بالدموع .

هذا السلاح أصبح سلاحهم ، وهـؤلاء الجنود أصبحوا حراسهم ، وانقلبت الآية وتغيرت الأوضاع .

ولم تمض أيام ثلاثة ، حتى اضطر الملك الفاسد إلى أن يلقى بعصيره فى البحر الأبيض ، لينجو بحياته من سخط الساخطين من الملايين .

وكان خروج الملك معناه نهاية عهد الطبقة المسرفة فى الانحلال الخلقى ، وبداية عهد جديد ، من المبادئ القائمة على الأخلاق .

على أن الطريق لم يكن كله ممهداً ، ولا مفروشاً بالورود .

والرواسب التى تركتها السنوات الطوال ، لم يكن من السهل أن تختفى ، فى يوم وليلة .

فالأحزاب قد اعتادت الأخذ بأسلوب يستمد وجوده من

طبيعة الحياة القديمة ، وما كان يتخلل الحياة القديمة من سلطات تمثلها دار المندوب السامى والقصر ، وأصحاب المصالح الكبرى من الأجانب ... وخلف هؤلاء صف طويل من العملاء والمنتفعين .

وكان الأمل معلقاً بمعجزة تتم .

وقد تمت هذه المعجزة يوم انتقل الحكم من أيد عابثة إلى قوم اتخذوا المذهب الخلقى فلسفتهم الوحيدة فى الحياة .

يوم قامت الثورة ، وتولى أمور هذه البلاد ، فريق من الشباب ، لا يملكون إلا أن يعملوا وأن يكافحوا ، ورؤوسهم على أكفهم لا يعبئون بالموت ، إن كان الموت ثمناً للحياة .

وكانت أهداف الثورة يسيرة واضحة ، تمثل مطالب الجماعة المغلوبة على أمرها ، وكان فى مقدمة هذه الأهداف :

- القضاء على الاستعمار .
- القضاء على الإقطاع .
- القضاء على الاحتكار .
- إقامة عدالة اجتماعية .
- تكوين جيش وطني قوى .

إلى آخر ما أعلنته الثورة من أهداف .

وكان لا بد من الأخلاق ، وتوفير القيم الخلقية حتى تتحقق هذه الأهداف .

وكان اتحاد الأمة هو المظهر الجماعى لهـذه المبادئ الخلقية الجديدة ، كما كان الاتحاد بين تنظيم الضباط الأحرار هو المظهر الجماعى لهذه المبادئ الخلقية .

وكما أن التنظيم لم ينجح إلا بهذه الأخلاق . وأن الاتحاد كان مظهر هذه الأخلاق ، فقد كان طبيعيا أن تسعى الثورة إلى أن تزيد فى أعبائها بعد أن نجحت ، وتفسح المجال لفلسفتها الخلقية فلا تصبح قاصرة على التنظيم بعـد أن بدا هذا التنظيم حقيقة ، يطالع الناس بتنفيذ ما قطعه على نفسه من وعود وارتضاه من برامج .

* * *

على أن الفريق الثائر من شباب القوات المسلحة ، كان يدرك حقا ما له من قدرة .

كان يعرف مكانه الحقيقى من المجتمع ، فلم تسكرهم نشوة النصر ، فيسعوا إلى الحكم ..

وكانوا ما برحوا يعتقدون أنه لا زال فى الدنيا خير . وأنه

لا زال بين رجال الأحزاب والقادة السياسيين حنكة ومقـدرة ورغبة فى الإصلاح .

فتركوا لهم الأمر ، وأخذوا يرقبون تصرفاتهم ، حتى يطمئنوا إلى أن مصالح الشعب فى أيد أمينة قادرة .

على أنهم سرعان ما تبينوا أن لدى هؤلاء حنكة ومقدرة ، ولـكن لا رغبة عندهم فى الإصلاح ، لأنهم لا يفـكرون فى غير أشخاصهم .

وسرعان ما تبينوا كذلك أن هؤلاء القادة نظريون .

أراد أولئك الشباب لبـلادهم طبيباً ، فلم يجدوا غير أدعياء الطب .

وقرروا أن يدخلوا تجربة جديدة فيتولوا الأمر بأنفسهم ، وسرعان ما تبين لهم أن ساسة العهد القديم كانوا من الدهاء والحيلة حين أرادوا قتل القوى الخلاّقة فى هذا الشعب .

أوهموه بأنه فقير بينما لديه من الطاقات ما يوفر له الثروة والثراء .

وأوهموه أنه خلق ليفلح الأرض فحسب ومن الخـير له ألا يفـكر فى الاتجاه نحو الصناعة .

وأوهموه أن القناعة كنز لا يفنى ، لا ليمكنوا لهذه القناعة من

نفسه ولكن ليقتلوا فيه الطموح ، فلما مارس هذا الشعب حقوقه اتضح له أنه متزن عاقل ، لا يسعى إلى حرب الطبقات بقدر ما يسعى إلى توطيد دعائم التعاون بين الطبقات .

وهكذا نجحت التجربة ، لأنها قامت على الصدق والأمانة والإخلاص .

وتعلم هذا الفريق الثائر ، فن الحكم والبناء .

والذين يعرفون جمال عبد الناصر ويعرفون كيف يعمل ، يجدون أنه يقضى أيامه ولياليه فى غرفة مكتبه بين أكوام من الأوراق والتقريرات ، بعد أن كان الحكام السابقون يقضون أوقاتهم بين الفكاهة والعبث ، وسيل لاينتهى من الزوار أصحاب الحاجات والمنافع الخاصة .

ذلك أن جمال عبد الناصر يؤمن بأن أمانة الوطن مسألة خلقية ، وأن تولى أمور البلاد قضية مقدسة تستحق هذا العناء .

ولقد كان الشعب متعطشاً لهذا المذهب ، لأنه مذهبه ، ولأنه كان قد ضاق بالانتهازية والفردية ، واستغلال الكفاح الوطنى لتأمين المصالح الشخصية . فلما حلت الثورةُ الأحزابَ ، ولما أخذت تتبّع المنظمات والهيئات والجماعات لتطهّر البلاد من كل اتجاه يتنافى مع المذهب الجديد ، وجدت من طبقات الشعب على

اختلافها حماسة واندفاعا ، لأن ذلك كله كان انعكاساً لإرادتها وتعبيراً عن مشيئتها .

وقبل أن تنقضى سنوات أربع من عمر الثورة ، تم جلاء آخر جندى من قاعدة قنـاة السويس فى ١٨ يونيو ١٩٥٦ .

وفى ١٩ يونيو ١٩٥٦ كان بطل هذا الجلاء وزعيم الثورة جمال عبد الناصر يقول فى احتفال الجلاء :

« كانوا فى الماضى يرشون جماعة لتصمت ، ويغدقون على أخرى تؤيدهم ، ولـكننى سأعمل للمجتمع وللوطن كله ، لا لفئة ولا لجماعة . . . للوطن كله .

« لأبنائه الأقوياء ، ولأبنائه الضعفاء ، بل إنى سأعمل لأبنائه الضعفاء ، أكثر مما أعمل لأبنائه الأقوياء . . . للضعفاء أكثر مما عمل من قبل على مر السنين والأيام .

« هذه يا إخوانى هى المثل التى أومن بها ، والتى لن أحيد عنها ، ولو على رقبتى وحياتى ودمى . هذه المثل أومن بها من سنين طويلة وأعتبرها انعكاساً لأحاسيسكم » .

* * *

على أن الجلاء ، وكان من أجلّ أهداف الثورة ، قد سبقته أحداث ، ولحقته أحداث ، فى عام ١٩٥٦ نفسه .

ففى ١٦ يناير سنة ١٩٥٦ ، كان الدستور قد أعلن ، بعد انقضاء فترة الانتقال التى حددتها الثورة من قبل ، وهى ثلاث سنوات ، وكان هذا مقدمة للجلاء ، بحيث يتسلم الشعب مقاليد أموره ، بعد أن تتطهر أرض الوطن من الاحتلال .

ويوم أعلن الدستور قال الرئيس جمال عبد الناصر :

« إن الثورة الحقيقية تبدأ اليوم . ثورة من أجل العمل . ثورة من أجل البناء . ثورة يمارسها الشعب . ثورة يحرسها الشعب . تحرسونها أنتم جميعاً ، ويحرسها أولادكم من بعدكم ويحرسها أحفادكم .

« إن الدستور الذى نعلنه اليوم يجمع الوطن جميعاً . كلنا سنكون مجلس الثورة الأكبر . كلنا سنكون مجلس الثورة الأعلى . كل هذا الشعب ، كل أبناء الشعب سيكونون مجلس الثورة .

« اليوم تعلو سيادة الشعب ، لا سيادة الأمراء ، ولا سيادة الحكام ، واليوم تنتصر سياسة الشعب » .

كلنا سنكون مجلس الثورة الأكبر ، كما سنكون مجلس الثورة الأعلى » .

* * *

هى إذن الفلسفة الخلقية التى آمن بها التنظيم ، وهو بعد سر فى ضمير الغيب ، ثم وهو ثورة تندلع باسم ملايين الأحرار ، ثم وهو عمل إيجابى حقق أجل أهداف الشعب ، وهى تطهير أرض الوطن من الاحتلال .

وكان أظهر مظاهر هذه الفلسفة الخلقية : « الاتحاد » .

* * *

وهذه هى مقدمة الدستور الذى أعلنته الثورة نثبتها هنا بنصها ، لما فيها من دلالة واضحة على هذه الفلسفة ، والعوامل التى ساعدت على تكوينها ، وشيوعها بين أبناء الوطن :

• نحن الشعب المصرى :

الذى انتزع حقه فى الحرية والحياة ، بعد معركة متصلة ضد السيطرة المعتدية من الخارج ، والسيطرة المستغلة من الداخل .

• نحن الشعب المصرى :

الذى تولى أمره بنفسه وأمسك زمام شأنه بيده ، غداة النصر العظيم الذى حققه بثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، وتوّج به كفاحه على مدى التاريخ .

• نحن الشعب المصرى :

الذى استلهم العظة من ماضيه ، واستمد العزم من حاضره ،
فرسم معالم الطريق إلى مستقبل :

- متحرر من الخوف
- متحرر من الحاجة
- متحرر من الذل

يبنى فيه بعمله الإيجابى ، وبكل طاقته وإمكانياته مجتمعاً
تسوده الرفاهية ، ويتم فى ظلاله :

- القضاء على الاستعمار وأعوانه .
- القضاء على الإقطاع والقضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم .

إقامة جيش وطنى قوى .

إقامة عدالة اجتماعية .

إقامة حياة ديمقراطية سليمة .

نحن الشعب المصرى الذى يؤمن :

- بأن لكل فرد حقا فى يومه .
- ولكل فرد حقا فى غده .
- ولكل فرد حقا فى عقيدته .

• ولكل فرد حقا فى فكرته .

حقوقا لا سلطان عليها أبدا لغير الحق والضمير .

• نحن الشعب المصرى . . الذى يقدس الكرامة والعدالة والمساواة باعتبارها جذوراً أصيلة للحرية والسلام .

• نحن الشعب المصرى . . الذى يشعر بوجوده ، متفاعلا فى الكيان العربى الكبير ، ويقدر مسئولياته والتزاماته حيال النضال العربى المشترك لعزة الأمة العربية ومجدها .

• نحن الشعب المصرى . . الذى يعرف مكانه على ملتقى القارات والبحار من هذا العالم ، ويقدر تبعات رسالته التاريخية فى بناء الحضارة ، ويؤمن بالإنسانية كلها ، ويوقن أن الرخاء لا يتجزأ ، وأن السلام لا يتجزأ .

• نحن الشعب المصرى .. بحق هذا كله ، ومن هذا كله . نرسي هذه القواعد والأسس دستوراً ينظم جهادنا ويصونه ، ونعلن اليوم هذا الدستور ، تنبثق أحكامه من صميم كفاحنا ، ومن خلاصة تجاربنا ، ومن المعانى المقدسة التى هتفت بها جموعنا ، ومن القيم الخالدة التى سقط دفاعا عنها شهداؤنا ، ومن أحلام المعارك التى خاضها آباؤنا وأجدادنا ، جيلا بعد جيل .

من حلاوة النصر ، ومن مرارة الهزيمة . نحن الشعب المصرى ، وبعون الله وتوفيقه وهداه ، نملى هذا الدستور ، وتقرره وتعلنه مشيئتنا وإرادتنا وعزمنا الأكيد ، وتكفل له القوة والمهابة والاحترام .

* * *

هذه هى مقدمة الدستور ، وهى أقرب إلى أن تكون وثيقة شرف ، تعلن عهداً خلقيا جديداً ، يربط أبناء الأمة جميعهم برباط الاتحاد ، ويجمع صفوفهم ، ليمضوا فى طريق وعر طويل ، يحققون أهدافهم فى العزة والكرامة والحرية ، ويبنون مستقبلهم فى صبر وإصرار ، متعاونين مع دول العالم جميعاً ، فى مجتمع إنسانى عادل ، ترفرف عليه السعادة ، ويسوده السلام .

* * *

وبعدها تم الجلاء وبدأت مرحلة البناء ، كما قال الرئيس جمال عبد الناصر ، واتجهت القوى كلها تحاول أن تدبر الأمر لبناء السد العالى .

* * *

على أن أصحاب المصالح من المستعمرين ، لم يكونوا ينظرون فى ارتياح إلى هذا التطور الخلقى ، فى الأرض التى لم ينجحوا

فى تغيير نظرتهم إليها على أنها تركة لهم سهلة مواتية .

بل لقد أضمروا فى قلوبهم شرا ، فانتهزوا فرصة الحاجة إلى تمويل السد العالى ، ليعاودوا الكرة ، محاولين استغلال الموقف لصالحهم .

وجاءهم الرد فى ٢٦ يوليو من نفس العام ١٩٥٦ :

أمم زعيم الشعب قناة السويس ، ليستعين بما تغله من دخل ، على تمويل أضخم مشروع على النيل .

وقال الرئيس فى خطابه التاريخى الذى ألقاه فى مدينة الإسكندرية يومها :

• حين نتجه إلى المستقبل نشعر أن معاركنا لم تنته ، فليس من السهل أبدا أن نبنى أنفسنا فى وسط الأطماع الدولية والاستغلال الدولى والمؤامرات الدولية .

• أمامنا معارك طويلة لنعيش أحراراً كرماء أعزاء ، واليوم وجدنا الفرصة ووضعنا أساس العزة والحرية والكرامة من أجل حرية الإنسان ورفاهية الإنسان ، ولا بد أن نجد الفرصة لنشر هذه المبادئ .

• حاول الاستعمار بكل وسيلة من الوسائل أن يضعضع

قوميتنا وأن يضعف عروبتنا وأن يفرق بيننا ، نخلق إسرائيل صنيعة الاستعمار .

• إن القومية العربية تتقدم وتنتصر . إنها تسير إلى الأمام، وهى تعرف طريقها ، وتعرف سبيلها .

* * *

كان واضحا إذن ، أن المذهب الخلقى الذى بدأ مع التنظيم القديم ، قد بدأت دائرته تتسع لتشمل أبناء الوطن جميعاً ، بل لتشمل أبناء الأمة العربية كلها .

ولم يكن هذا سهلا ، ولا هينا ، من وجهة نظر المستعمرين ، الذين جلوا عن البلاد ، وفى نيتهم أن يعودوا ليحتلوها فى أول فرصة تسنح لهم .

ولم يكن الوقت فى صالحهم ، ولم يكونوا من الغباء ، بحيث يتركون المذهب الجديد يتمكن من قلوب الناس ، فلا يحيدون عنه بعد ذلك أبدا .

ولقد وجدوا أن النية صادقة ، نحو تثبيت دعائم المذهب الخلقى الجديد ، بتكوين اتحاد قومى يهدف إلى :

العمل على تحقيق الأهداف القومية

وحث الجهود لبناء الأمة بناء سليما ، وذلك بإقامة مجتمع

اشتراكى ديموقراطى تعاونى ، متحرر من الاستغلال السياسى والاجتماعى والاقتصادى .

* * *

وبقية فصول القصة بعدها معروفة :

عدوان بقوة السلاح ، اشترك فيه ثلاثة من المتآمرين .

وارتد السلاح إلى صدور أصحابه ، بعد أن أصبح المذهب الخلقى الجديد ، حقيقة واقعة ، من حقائق وجودنا ، وبعد أن أصبح مظهر هذا المذهب ، هو « الاتحاد القومى » ، الذى كان له فضل الانتصار ، فى هذه المعركة الحاسمة .

وثمة دليل واحد يمكن أن يساق ، للتدليل على قوة ما وصل إليه المذهب الخلقى الجديد ، وعلى قوة ما وصل إليه الاتحاد القومى من تغلغل فى النفوس .

عندما شن أصحاب العدوان عدوانهم ، كانوا يتصورون أن هذا الاتحاد لم يتمكن بعد من نفوس الملايين وقلوبهم وضمائرهم .

وصور لهم وهمهم أنهم يكسبون ، لو أنهم صوروا هذه المعركة ، على أنها موجهة ضد جمال عبد الناصر نفسه ، وأن الشعب ليس هو المقصود بأية حال .

كان المستعمر المغرور وحلفاؤه يتصورون أن احتلال بورسعيد، وضرب مطارات القاهرة والإسكندرية والمدن الكبرى ، وإزعاج أمن الملايين من الأهالى ، كاف لحمل الناس على الانفضاض من حول رجل واحد ، يطالبون به هم دون سواه من المواطنين .

على أن الشعب الذى استعاد الثقة بنفسه ، وأدرك القيم التى ينطوى عليها المذهب الخلقى الجديد ، قابل كل ذلك فى سخرية .

فسخر من الإذاعات السرية التى توجه إليه ، وسخر من مقالات الصحف ، وسخر من بيانات زعماء العدوان .

ومضى يحرص على أخلاقه ، وعلى وحدته ، فى أيام المحنة الحالكة ، رغم المصير المجهول الذى كان يكتنف حياته ومصيره .

وكان الحرص على جمال عبد الناصر وقتها ، حرصا على زعيم وطنى يمثل الروح الجديدة بين أبناء الشعب .

وكان هذا الحرص خلقا آمن به الشعب وامتزج بروحه ودمه .

وبينما أخذوا يطالبون برأس جمال عبد الناصر ، كان جمال عبد الناصر ، يسير فى شوارع القاهرة ، فى سيارة مكشوفة ، بلا حراس ، وطائرات الأعداء تحلق فى سماء العاصمة .

وبينما أخذوا يحرضون الجماهير على جمال عبد الناصر ، كان جمال عبد الناصر ، يصلى الجمعة فى الجامع الأزهر ، ويلتقى

بالآلاف ، وقد أخذوا يهتفون باسمه ، ويدعون له بالتوفيق .

وبينما كانوا يذيعون افتراءاتهم المسمومة عن تسليم مدن منطقة القناة لجنود الاحتلال ، كان جمال عبد الناصر يعلن فى كل مناسبة من المناسبات ، أننا سنقاتل حتى آخر قطرة من دمائنا ، وأن كل من يوسوس له الشيطان بالعدوان على أرضنا ، سيجد فى هذه الأرض مصيره المحتوم .

وبينما كانت الدعايات تنطلق ضد جمال عبد الناصر فى العالم العربى ، أخذ الشعب العربى — وخاصة فى سورية — يخوض المعركة جنبا إلى جنب مع جمال عبد الناصر .



مذهب واحد
فى سوريّة ومصر

ولو أننا تركنا جانباً المجتمع قبل الثورة ، فى إقليمنا الجنوبى ، والتفتنا إلى المجتمع قبل الثورة فى إقليمنا الشمالى ، لم نجد الحال هناك تختلف كثيراً عما كانت عليه الحال هنا .

كان فى إقليمنا الشمالى ، كما فى إقليمنا الجنوبى ، استعمار . . . على فرق ما بين طبيعة الاستعمارين.

وكان هذا كافياً ، ليحيط الاستعمار نفسه ، بالعوامل نفسها ، وأن تلتف حول هذا الاستعمار نفس الطبقات ، وأن تستشرى فى المجتمع هذه العيوب ، والأمراض .

صحيح لم يكن فى الإقليم الشمالى قصر . . . قصر كبير ، ولكن القصر الكبير كان موجوداً بمعناه ، وبأثره على طبقات المجتمع ، وعلى الأخلاق .

وإذن ، فلم تكن الحال تختلف إلا فى التفصيلات ، فى المجتمعين .

بل ربما أمكننا أن نقرر أن المجتمع هناك لم يكن إلا امتداداً للمجتمع قبل الثورة فى الإقليم الجنوبى .

وإذا التطور الخلق فى الإقليمين يكاد يكون واحداً ، بالنسبة إلى السلوك الخاص ، وبالنسبة إلى السلوك العام كذلك .

تكونت فى الإقليم الشمالى، طبقة متخمة ، مسرفة فى التخمة ، تحظى بكل ألوان الجاه ، والنفوذ ، والثراء ، والسلطان .

وظلت الكثرة الغالبة على حالها ، تطوى بطونها على جوع ، وتضم شفتيها على جفاف .

وأحاط الاستعمار نفسه بالقصور ، وأحاطت القصور نفسها بقصور أقل شأناً ، وتدرجت المصالح حتى استوعبت عدداً من ذوى المصالح والمنافع الشخصية ، لايعنيهم إلا أن يرضى الاستعمار الفرنسى ، ويطيب خاطره ، ويطمئن باله ، إلى وجوده داخل البلاد .

واستشرى بين هؤلاء انهيار خلقى ، أدى إلى تحطيم كل المثل ، والعبث بكل القيم ، والخروج على كل قانون من قوانين الأخلاق .

على أن الشعب الطيب المسكين ، ظل يكافح الاستعمار ، تدفعه النوايا الطيبة ، وتحفزه عوامل العزة والكرامة والكبرياء .

وكما ضللت الطبقة المترفة أبناء الشعب فى الإقليم الجنوبى ،

كذلك ضللت هذه الطبقة نفسها أبناء الشعب فى الإقليم الشمالى .

وما كان للتضليل أن يستمر طويلا ، فإن الشعب أذكي من أن يقع دائماً فريسة للأهواء والنزوات والشهوات .

وقام الشعب العربى فى سورية بالضغط على أولياء الأمر فى بلاده ، عقب ثورة ١٩٢٥ — ١٩٢٧ ، فتكونت الكتلة الوطنية .

ولكن الاستعمار الفرنسى الرابض فى أرض سورية لم يهدأ حتى ظهرت المنظمات الحزبية على صور مختلفة الأشكال والأسماء والقيادات ، وكلها تتنافس وتتبادل من التهم أقساها ، وهدفها جميعاً الحكم ، وما يجره الحكم على الحاكم من مزايا ومنافع .

على أن هذه المنظمات لم تجد مجالا تنشط فيه ، ولم تجد أذناً تصغى إلى حملات التضليل التى حاولت أن تجتذب بها الجماهير ، فانهارت كلها فى سنة ١٩٣٤ ، وعادت الكتلة الوطنية تقاتل الاستعمار من جديد ، ووراءها شعب يملؤه الإصرار ، بينما الاستعمار ماض فى طريقه المعروف ، يشترى الذمم ، ويفسد الضمائر ، ويجمع حوله طبقة من الانتهازيين يساندون وجوده ، ويعتمد عليهم فى تحقيق ماله من أغراض .

وواتت الظروف ، فاستقلت سورية فى أعقاب الحرب الكبرى الثانية ، بعد معركة دامية ذهب ضحيتها كثيرون من الشهداء ، وسجل أبناء الشعب فيها ألوانا كثيرة من البطولات .

واضطر الاستعمار الفرنسى إلى أن يحمل عصاه على كتفه ويرحل .

وكما فعل الاستعمار الانجليزى فى مصر ، فعل الاستعمار الفرنسى فى سورية . . . رحل تاركا وراءه حلماً كبيراً : أنه سيعود يوما ليستأنف سلطانه ، ويستعيد ما كان له من نفوذ .

ولم يكن المذهب الخلقى الذى تكسبه الشعوب من تجارب المحن ، قد وصل بعد إلى قوته الطبيعية ، فيفرض الاتحاد على المجتمع ، بمن فيه من الحكام ، وما يضم من طبقات الشعب المختلفة .

كانت التجربة لا تزال وليدة . فلما حكمت الكتلة الوطنية ، بعد الاستقلال ، دبت فيها عوامل الانقسام ، ففتت فى عضدها وأضعفت شوكتها ، ونشأ فراغ كبير فى الإحساس الخلقى العام بين طبقات الشعب الطيب .

وعادت منظمات سياسية مختلفة تحاول أن تملأ الفراغ ، وأن تكسب الرأى العام . ولكن الرأى العام لم يكن مستعدا على

أية حال ، أن يدخل فى تجربة جديدة ، قد تكون استغلالا جديدا لقلبه الطيب ومشاعره وانفعالاته .

وكان وضع سورية الجغرافى من العوامل التى دفعت ألوانا كثيرة من النشاط السياسى إلى هذه البلاد . فكان لكل دولة مجاورة حزب يتحدث باسمها داخل الإقليم الشمالى ، كما كان للدول الغربية والشرقية الكبرى أحزاب تحاول استمالة الجماهير . وأصبحت سورية تمتلىء بنشاط غريب ، لا أول له ولا آخر .

على أن الجماهير – وقد أدركت ماوراء كل هذه المنظمات من خبايا – ظلت بعيدة عن هذا الجو المشحون بالنوايا الغامضة ، محاولة أن تنجو بنفسها من هذا الطوفان .

وما كان لذلك كله أن يستمر ، فتعرضت البلاد السورية لسلسلة متعاقبة من الانقلابات العسكرية ، حاولت أول الأمر أن تنقذ الموقف ، ولكنها ما كانت تبدأ ، حتى يلتوى بها القصد ، وينحرف بها الطريق ، فينفتح الباب لانقلاب جديد .

كل ذلك لأن هذه الانقلابات لم تأت فى أوانها الطبيعى ، ولأنها سبقت التمهيد الخلقى الضرورى اللازم للاستقرار .

وبلغت الحال حدا من التأزم ، جعل أبناء الشعب السورى

يتطلعون إلى فجر جديد . على أنهم لم يكونوا يعرفون متى يطلع عليهم هذا الفجر .

هل يتأخر مطلعه ؟

وفجأة اندلعت الثورة فى مصر ، وفجأة عرف أبناء سورية أن القوات المسلحة المصرية قد تحركت تحتل مكانها من القيادة بين أبناء شعب مصر .

وكان طبيعيا أن ينظر شعب سورية إلى هذه الحركة الجديدة ، بشىء غير قليل من الحيطة والحذر ، بعد التجربة التى مرت به فى سورية .

على أن الأيام التى أعقبت الثورة الجديدة ، أثبتت بما لا يدع مجالا للشك أن عنصرا جديدا ، بدأ يظهر فى أفق الحياة العربية :

أصرت الثورة الجديدة على إجلاء قوات الاحتلال البريطانى ، وجلت قوات الاحتلال البريطانى ..

وأصرت الثورة الجديدة على محاربة الإقطاع ، ونجحت فعلا فى حرب الإقطاع .

وأصرت الثورة الجديدة على أن ترتبط ارتباطا وثيقا بالعالم العربى ، وتم لها هذا الارتباط بالفعل ، بلا زيف ولا تمويه ولا انتهازية . .

وإذا الخطب الملتهبة التى يلقيها زعيم هذه الثورة ، الرئيس جمال عبد الناصر ، تعرض مشكلات العرب وقضاياهم ، عرضا يربطها ربطا محكما وقويا بمشكلات مصر وقضاياها .

وأنصت الشعب العربى إلى أحاديث القومية العربية ، تنطلق فى وادى النيل ، فى هذه الخطب الفياضة الضافية :

إلى أحاديث عن محنة فلسطين .

وإلى أحاديث عن التجربة المريرة التى يخوضها اللاجئون من عرب فلسطين .

وإلى أحاديث عن الثورة فى الشمال من إفريقية ، تحيي الثوار وتشد من عزماتهم .

وإلى أحاديث عن الثورة فى الجنوب من البلاد العربية ، تؤكد الكفاح الحر من أجل الحرية .

وإلى أحاديث تتناول كل أزمة تمر ، وكل حادث يقع ، ولو فى جزء ناء من أجزاء هذا العالم العربى الكبير .

وما من حر من أحرار العرب ، حاول أن يثور مرة على لون ما من ألوان الاستعمار ، إلا وكان له فى أحاديث جمال عبد الناصر مكان ملحوظ .

وما من منطقة من المناطق العربية ، حاولت مرة أن ترفع راية العصيان على أى لون من ألوان الاستغلال السياسى من الداخل أو من الخارج ، إلا ونالت حظها الكبير من تأييد فى خطب جمال عبد الناصر وأحاديثه .

وهكذا وجدت القومية العربية مكانها فى هذا القلب الكبير ، وعلى لسان زعيمها وفى أحاديثه المسهبة الفياضة .

وبعد أن كان الشعب العربى فى سورية ، وفى غير سورية من الدول العربية ، يلاحظ أن قادة مصر السابقين ، كانوا أبعد قادة العرب من قضايا العرب .

وبعد أن كان الشعب العربى فى سورية ، وفى غير سورية من الدول العربية ، يرى أن فهم الشعب المصرى لقضايا العرب محدود ، نتيجة لسياسة الاستعمار وما كان يسعى إليه دائما الاستعمار من بث الفرقة بين الشعوب العربية ، وتشتيت كلمة العرب ، وفصل مصر عن الكتلة العربية ، ونتيجة لسعى عملاء الاستعمار ، وقادة الأحزاب الواقعين تحت تأثير الاستعمار ، والمنفذين لسياسته عن جهل أو عن قصد ، ونتيجة لاتجاهات القصر الذى عبر عنها الخديوى إسماعيل تعبيراً مجافياً لحقائق الطبيعة والتاريخ عندما قال : « إن مصر قطعة من أوربا » .

بعد أن كان الشعب العربى فى سورية ، وفى غير سورية من الدول العربية ، يرى هذا كله ويسمعه ويشهده . . . وهو يؤمن فى الوقت نفسه أن شعب مصر الطيب شعب عربى خالص ، لكن لم تتوفر لديه القيادة العربية الحرة التى تمكنه من متابعة المشكلات وهذه القضايا .

بعد أن كان هذا يحدث ، فى وادى النيل ، بدأت شعوب العرب تشعر أن هذه الروح قد تغيرت ، وأن ثورة الجيل الجديد ، أخذت تعرف طريقها ، وترتبط ارتباطا حقيقيا بالقومية العربية النامية فى سرعة أذهلت الشرق والغرب معاً .

وبعد أن كانت القضايا العربية فى مصر لا تعدو الاهتمام بمواسم الحج ، بدأت شعوب العرب تستمع إلى جمال عبد الناصر ، وهو يدخل فى معركة مع الاستعمار من أجل واحة البريمى .

وبعد أن كانت القضايا العربية فى مصر لا تتجاوز الاهتمام بملكة سبأ كلما ذكر اليمن الشقيق والصديق ، بدأت شعوب العرب تنصت إلى جمال عبد الناصر وهو يشن حملة شعواء على موقف الاستعمار من الساحل اليمنى وما يسميه الاستعمار بالمحميات .

وغير هذا فإننا لا ننسى كيف كان العدوان على الحدود العربية من جانب العصابات الصهيونية ، له صداه فى أحاديث الثائر الذى لم يعترف بأن قضايا الحرية والاستقلال يمكن أن تختلف باختلاف البلدان العربية .

* * *

وفجأة سمعت شعوب العرب ، صوت البطل الثائر ينطلق من الإسكندرية ، يؤمم قناة السويس ، بعد معركة طويلة قاسية ، من أجل تمويل مشروع السد العالى .

وكان صوتا كالرعد .. يدوى كدوى القنابل ، يعلن فى شجاعة وقوة ، أن مرفق القناة « مرفق القناة بنيانه بسواعدنا ، وأن دخله من حقنا وحدنا ، نوفر به الرخاء لأبناء بلدنا » .

كان الجلاء قد تحقق منذ أسابيع ، وكان جمال عبد الناصر قد أعلن فى صراحة أن علينا أن نبدأ مرحلة العمل ، وألا نتوقع أن يكون طريقنا مفروشاً بالورود ، بل علينا أن نتوقع الفتن والمؤامرات .

ولم تمض أسابيع ، حتى بدأت هذه المؤامرات تظهر ، مستغلة حاجتنا إلى تمويل مشروع السد العالى ، ومحاولة

التسلل من هذه الثغرة إلى التحكم فى اقتصادنا من جديد ، ومن منا لا يدرى ماذا يجره هذا التحكم من نتائج سياسية وعسكرية فى مستقبل علاقاتنا بالاستعمار الغربى ؟

وكان جمال عبد الناصر هـذا الزعيم الذى لا تفوته هذه الدقائق . . . وليس هو الذى يبيع بلاده ، بأى ثمن . ولقد صرح من قبل فى حديث طويل من أحاديثه ، بأننا أمة تعرف أن مستوى المعيشة فيها لا يزال محدوداً ، وأننا أبناء مجتمع يستطيع أن يقتسم لقمة الخبز التى عنده ، ولا يفرط فى كرامته .

وكان الرد السريع الحاسم على محاولات الاستغلال الغربى لهذا الموقف ، أن أعلن التأميم . . . ولم تكن قناة السويس بالمرفق الهين الذى يمضى تأميمه هكذا فى يسر ، ويمر على الطامعين مرور النسيم .

لقد جن جنون « جى موليه » فى باريس وفقد صوابه !

وجن جنون « إيدن » فى لندن وفقد اتزانه !

وأصيبت دوائر الأعمال الكبرى بنوع من السعار !

أما أثر ذلك فى العالم العربى ، وفى سورية على وجه الخصوص ، فقد كان تأكيداً لا تأكيد بعده لحقيقة أخذت

تزداد وضوحاً كل يوم ، وهى أن قيادة الثورة فى مصر ، قيادة باسلة مستبسلة ، تفتح عينيها جيداً ، لتتبين خطواتها فى الطريق الجـديد .

وأصبح يقيناً ما كان استنتاجاً ، وهو أن ذلك كله قد تم ، لأن ثورة مصر بذرت فى التربة العربية فى وادى النيل بذور الاتحاد ، وأن الاتحاد لا يمكن إلا أن يكون نتيجة لتوفر مستوى خلقى معين ، وسيادة قيم خلقية معينة .

فلما قامت الدنيا كلها تهاجم جمال عبد الناصر ، زاعمة أنه يمضى الأمور وحده ، ودون رضى الشعب ، هب الشعب فى مصر ، وفى سورية ؛ وفى العالم العربى : يدفع عن جمال عبد الناصر هذا الافتراء .

كأنما أرادت الحناجر التى انطلقت بالهتاف ، والأكف التى أخذت فى التصفيق ، والاجتماعات، والمؤتمرات،أن تؤكد أن هذا ابن بار،أحللناه منا مكان القيادة، وهو يعبر عنا ، ويفرض مشيئتنا ، وسندفع عنه نحن كل مؤامرة ، بأرواحنا ودمائنا ..

على أن الاستعمار ركب رأسه وكان العدوان .

ورب ضارة نافعة كما يقال .

لقد ربط هذا العدوان ، مصر وسورية برباط مقــدس لا ينفصل ، فقد دخلت سورية المعركة جنباً إلى جنب مع مصر ، وقدمت الدليل تلو الدليل ، على أن جمال عبد الناصر لم يعد زعيم مصر ، ولـكنه زعيم العرب ، المعبر عن إرادتهم الناطق باسمهم .

فما إن انتهى العدوان ، وتحقق الجلاء مرة ثانية عن بورسعيد وشبه جزيرة سيناء ، حتى أصبحت وحدة البلدين حقيقة تاريخية وخلقية ، لا يجادل فيها اثنان .

لقد امتدت روح الاتحاد فشملت سورية ، وكان معنى هذا أن المبادئ الخلقية الجديدة قد وجــدت صداها فى قلوب أبناء سورية .

لقد كانوا متعطشين إليها ، وكانت المسألة مسألة وقت ، يطمئنون فيه إلى أن هذا هو ما يتطلعون إليه ، فلما أكدت لهم الأحداث هذا ، أقبلوا متحمسين للمبادئ الخلقية الجديدة ، وللاتحاد الحقيقى الذى لا يتوفر فى مجتمع ، ما لم تتوفر فيه عوامل الأخلاق ، وما لم ترتفع فيه القيم الخلقية .

ولما أعلنت الوحدة ، وبدأ استفتاء الشعب ، كان الشعب السورى مثلا للحماسة النادرة ، للحياة الجديدة ، التى طالما تمناها ، وعاش يحلم بها .

كذلك كانت الحماسة شيئاً لا نظير له ، فى انتخاب الرئيس جمال عبد الناصر ، أول رئيس للجمهورية العربية المتحدة .

كذلك كان اندفاع الشعب السورى فى تأييد الاتحاد ، كمظهر للقيم الخلقية الجديدة التى كانت مضرب الأمثال فى كل مكان .

* * *

وهكذا نرى أن القيم الخلقية الجديدة كانت شيئاً كامناً فى نفوس أبناء الشعب العربى ، تغشى عليه مظاهر الفساد والإفساد ، وكلها تنتهى إلى العوامل الغريبة الدخيلة على البلاد العربية ، وأظهرها الاستعمار .

وبينما كان العرب يتطلعون إلى فجر جديد ، يمكنهم من إظهار ما تُكنّ نفوسهم ، وما استقر فى ضمائرهم ، كان فريق من ضباط القوات المسلحة ، يمارسون هذا المذهب ، ويطبقونه أولا على أنفسهم ، ليزدادوا به صلابة وقدرة على مواجهة ما يمكن أن ينتظرهم من أحداث .

فلما صقلت التجربة نفوسهم ، وأصبحوا على درجة من القوة تمكنهم من الخروج بالصفات الخلقية التى كسبوها إلى ميدان التجربة ، إلى ميدان العالم ، تخيروا الوقت الملائم تماماً لتنفيذ الثورة .

وما إن استقرت الثورة ، وقضى الثوار على عوامل الفساد والانحلال حتى أفسحوا المجال لإخوانهم فى الوطن العربى ليصبح كل من فيه عضواً فى مجلس الثورة الأكبر .

وتجاوبت الأصداء على ضفاف النيل مع الأصداء على ضفاف بردى ، فكانت وحدة ، وكان اتحاد أساسهما الأخلاق .

وأصبح مجلس الثورة العربى شيئاً أكبر وأعم من شعب مصر ، ومن شعب سورية .. أصبح شعب الجمهورية العربية المتحدة .

ومضى الشعب المتطلع إلى تأكيد تراثه الخلقى ، ومثله الراسخة عبر الأجيال ، يدعم وحدته ، ويقوى اتحاده ، فى جو مشحون بالفتن والمؤامرات .

على أن كل مؤامرة كانت تدبر ، كانت تجد بطل هذه الفلسفة وقائدها فى مقدمة الصفوف ، يطالعها شجاعاً صلباً لا يلين .

وبهذا ازدادت وحدتنا على الأيام قوة ، وازدادت فلسفتها الخلقية رسوخاً ، وازداد اتحادنا قدرة على تعويض ما فات ، وكسب جديد من الانتصارات .

التطور الخلقى وتاريخ الإنسان

على اننا لو تركنا جانبا ما حدث فى بلادنا ، من تطور جليل نحو إقرار قواعد الأخلاق ، وتمسك بالقيم الخلقية ، واتجاه نحو فلسفة خلقية ، مظهرها الواضح هو ما نحن فيه اليوم من « اتحاد قومي » يهدف إلى العمل على تحقيق الأهداف القومية وحث الجهود لبناء الأمة بناء سليما ، وذلك بإقامة مجتمع اشتراكي ديموقراطى تعاونى : متحرر من الاستغلال السياسى والاجتماعى والاقتصادى .

لو أننا تركنا جانباً هـذا ، ونظرنا إلى المجتمع الإنسانى كله ، لوجدنا أن تاريخ الإنسان قد مر بهذه الأطوار جميعاً ، وتعرض لهذه الأحداث ، وخضع لجدل طويل ، أخذ شكل النظريات حيناً ، وشكل مذاهب الحكم حينا آخر ، وانتهى إلى أن المجتمع الفاضل ، هو خير طريق يصل المجتمع بأهدافه ويحقق غاية الإنسان الشريف فى مجتمع عادل .

ولئن كنا سنتجه فى هذا الجزء من الكتاب إلى صورة إنسانية شاملة ، فما لا شك فيه أننا نستطيع أن نجد هذه

الصورة واضحة تمام الوضوح فى الأطوار التى مرت بها مناقشة هذه النظريات والمبادىء والمذاهب، فى المجتمع اليونانى القديم وعند كبار مفكريه الذين رسموا للإنسانية وحضارتها وتراثها جميع معالم الأمان والمعرفة. وطبقوا عملا جميع المذاهب التى ما زالت حضارة الغرب تستوحى منهـا المبادىء والأسس، حتى هذا الذى يعد بينها بدعاً.

وسيظل سقراط وأفلاطون وأرسطو، والمدارس التى عاصرتهم أو لحقت بهم، هم العُمُد التى يستند إليها أى باحث فى تطور المجتمعات، وفى الوصول إلى أفضل الطرق لتحقيق غايات الإنسان الرئيسة فى حياة فاضلة.

فمنذ القرن السابع قبل الميلاد، وفى أثناء ذلك القرن، والقرنين اللذين أعقباه، أخذت الحياة اليونانية شكل المدن الكبيرة المستقلة، التى تتجه كل منها اتجاهاً خاصا، وتدين بمذهب خاص، وتسيطر على كل منها نظرية خاصة.

وفى هذا الجو المتعدد الجوانب والمذاهب والاتجاهات، دارت مناقشات قادة الرأى حول أفضل مجتمع يتفق وحيـاة الناس، واحتياجاتهم.

وذهب الغلاة من السوفسطائيين إلى تمجيد الفرد تمجيداً يجعل

منه كل شيء، وهو الذى يفرض القانون الذى يريده، ورجحوا الفردية على كل شيء، حتى على الدولة نفسها.

وركز هؤلاء الغلاة هجومهم على القوانين الخلقية بصفة خاصة، وهذا هو ما يعنينا من هذا التطور فى الحياة اليونانية القديمة.

وقال هؤلاء الغلاة من السوفسطائيين بأن قاعدة السلوك الوحيدة التى يجب أن تميز طريق الفرد، هى رعايته لمنفعته الخاصة.

ولعل ما كتبه السوفسطائى «أنطيفون» فى كتابه «الحقيقة» يلخص لنا فى اعتدال ما ذهب إليه السوفسطائيون.

قال «أنطيفون» : إن القوانين لا توضع إلا لتحد من حرية الطبيعة، وأن على الإنسان أن يميز بنفسه وبالقوانين التى يضعها، «النافع من الضار» وعلى الجملة يذهب السوفسطائيون إلى القوة المسرفة الباطشة بكل شيء، وإلى تحطيم القواعد، حتى قواعد الأسرة نفسها، فلا بأس من أن يسيء الابن إلى أبيه، إذا رأى فى مسلك أبيه ما يسيء إليه !.

ومع هذا فإن « أنطيفون » لا يعبر تعبيراً كاملا عما ذهب إليه الغلاة من السوفسطائيين، فقد كان « أنطيفون » ، « وبروتاجوراس » من الذين رأوا فى قيام الدولة ضرورة

لضمان أمن الأفراد ، فقد بنى الأفراد المدن ليحموا أنفسهم من الوحوش ، ومن تقلبات الطبيعة ، وأقاموا الدول ليحموا أنفسهم من أخطار الدول الأخرى . ومن ثم فإن الدولة تمثل فى الحقيقة سلطاناً روحيا يجب أن نحرص على وجوده .

وهكذا نرى أن هذا الاتجاه السوفسطائى حاول التوفيق بقدر بين حرية الأفراد والنظام العام .

ومن أبرز السوفسطائيين « كاليكليس » الذى تشبه نظريته إلى حد نظرية نيتشه فى الإرادة ومصلحة الأقوى .

وقد رأى «كاليكليس» أن التناقض عام وصارخ بين القوانين الوضعية والطبيعة ، فليس هناك سوى القوة ، وليس لفرد أن يمارس حقا إلا الحق الطبيعى للقوة ، وذلك هو الطريق الطبيعى الذى يحصل به الفرد القوى على ما يهوى ، ويحقق به القوى ما عساه يريد من رغبة .

وقد أثبت أفلاطون حواراً جميلا بين «كاليكليس» وسقراط نجتزىء بعرضه فى هذه الصورة المجملة :

كاليكليس : إن الخير هو إرضاء الرغبة ، وإشباع اللذة ، وإن من يشاء أن يعيش حقا ، فإن عليه أن يتيح لرغباته أن

تنمو إلى أقصى حد تستطيعه ، وألا يحدها أو يقيدها أو يكبتها وعندما تنمو هذه الرغبات إلى حدها الأقصى ، فيجب أن تكون لديه الشجاعة والذكاء لاستغلالهـا وتوجيهها وإشباع جميع مطالبهـا .

وإذا كان الجمهور من الناس لا يستطيع التمتع بهذه الحياة ، ويخجل من ضعفه ، ومن ثم يمتدح عفته وقناعته نتيجة لعجزه ، فإن هذا ليس معناه أن تخدعنا اتجاهات هذا الجمهور .

سقراط : إن مطلب اللذة نفسه ، مطلب لانهاية له ، ورغبات الإنسانية الشهوانية لا تشبع ، وكلما حاولنا أن نشبع رغباتنا ، زادت شهوتنا . وتضاعفت رغبتنا فيما هو أكثر . واستحالة إرضاء رغباتنا مما يثبت سخف هذه المحاولة .

وليس إرضاء جميع أنواع الرغبات بلا حدود ، هو ما يريده الناس بالفعل ، بل إن الناس ينشدون السعادة . وكيف تكون السعادة ممكنة بلا مـذهب فكرى نستطيع على أساسه أن نفرق بين اللذات الصالحة واللذات غير الصالحة ؟ إن الإنسان الذى يفعل ما يرغب فيه بالضبط — استجابة لرغباته العاجلة — ليس إنساناً سعيدا ، بل هو عبد لعواطفه ، بائس فى عبوديته ،

ولا يمكن أن يوصف بأنه يفعل ما يرغب فيه حقا ، ذلك أن ما يرغب فيه ليس واقعاً تحت سيطرته الفكرية .

ليست الحرية فى طلب اللذة ، بل إنها فى حياة منظمة موجهة نحو استكمال ما هو إنسانى فى الإنسان ، هناك خير للروح ، كما أن هناك خيراً للجسد ، ولكل منهما علم خاص به . أما خير الجسد فنسميه علم الصحة ، أو علم الطب ، ومقياس الصحة هذا يتمثل فيما يحاول الطبيب أن يعيده إلى مرضاه .

يقابل هذا العلم علم خلقى ، سلوكى ، يُعنى بصحة الروح .

وكما أن الطبيب يسعى إلى الوصول إلى نظام معين يسير عليه جسم الإنسان حتى يبقى متمتعاً بالصحة ، كذلك يجب أن يسعى رجل الدولة إلى تحقيق العفة والعدل فى أرواح المواطنين.

إن السياسة فن عملى يتطلب معرفة بالطبيعة الإنسانية ، وكل ماهو صالح لها .

إن المواطنين ليسوا أشياء تعالج باليدين بل أشخاص تنطوى نفوسهم على غايات ، والمساعدة على بلوغ تلك الغايات ، هى الفن المميز لإرادة الدولة .

كليكليس: إن هذه القاعدة قد تترك الفرد تحت رحمة معتدٍ ما ، والحياة فى حقيقتها بشعة .

سقراط : لا . إن الحياة ليست بشعة . انت مخطىء ، وإنما البشاعة هو طريقة الحياة ، كما تصفها أنت .

كليكليس : إن الموت يقتلك إذا أنت لم تلاطفه !

سقراط : ليس المهم أن تعيش طويلا ، بل أن تعيش عيشة كاملة ، والشيء المخوف ليس هو أن تموت ، بل أن ترقى إلى العالم العلوى بروح مثقلة بالذنوب ، وما من أحد يستطيع أن يهرب من يوم الحساب .

* * *

هذا الحوار يظهر دون شك الخلاف الفكرى بين غلاة المذهب الفردى الذى هدف إلى تغليب القوة الفردية على المذهب الجماعى فى السلوك وعلى الفلسفة الخلقية ، وأراد أن تجتمع الحقوق كلها للفرد طالما أنه قوى، له أن يحقق كل ما له من رغبة ، ويشبع كل ما لديه من شهوة .

وقد قال أفلاطون فى هذا :

إن المجتمع الذى يسمح للناس بأن تنمو فيه شهواتهم إلى الحد الأقصى والذى يستطيعون فيه أن يطلقوا العنان لرغباتهم ، يخضع آخر الأمر ويستسلم ويسلم قياده إلى شهوة جارفة طاغية . والطغيان ليس إلا ثمرة الحياة المشوشة التى لا تضبطها الضوابط

ولا تحدها الحدود . والحرية التى تسعى وراء اللذة ، تؤدى إلى العبودية .

* * *

هل تقف هنا وقفة لننبه إلى أن الفلسفة السوفسطائية التى دعت إلى مذهب القوة ، واستعباد القوى للضعيف ، لم تأت عفواً ، وإنما فرضتها مصلحة استعمارية ، مغالية مستبدة لا تنظر إلا إلى الغلبة وفرض السلطان بالقوة .

لقد كانت أثينا فى القرن الخامس قبل الميلاد ، تسعى إلى السيطرة بالغزو على كثير من مدن اليونان ، وكانت أمنية أصحاب المصالح الذين يستفيدون عادة من الاستعمار ، أن يحقق هذا الاستعمار غاياته ، لتظل مصالحهم مضمونة ، لا يؤثر فيها مؤثر .

ليستمروا هم سادة متفوقين ، ولو على حساب المهزومين من البشر . المغلوبين من أبناء المدن الأخرى .

وهكذا كانت هذه الفلسفة مظهراً من مظاهر الطغيان الاستعمارى الذى حرص عليه أصحاب المصالح من أبناء أثينا الغالبة الغازية .

وكان هذا الاتجاه هو اتجاه الطبقة التى تسعى إلى تسخير

الغزو لتحقيق مصالحها الخاصة ، ولو على حساب الأخلاق ، واستعباد الإنسان .

* * *

على أن هذا الجانب المسرف فى الفردية ، والثورة على مصلحة الجماعة ، لم يلبث أن تعرض لهزة عنيفة قوضت أركانه ، عندما بدأت حرب البلوبونيز وامتدت من سنة ٤٣١ فى القرن الخامس قبل الميلاد ، إلى مطلع هذا القرن أى فى سنة ٤٠٤ ، واشتركت فيها جميع مدن اليونان ، وانتهت بهزيمة أثينا .

وشهد أفلاطون مقدماتها ، وكانت مليئة بالأزمات الداخلية والخارجية ، ولقد أدت هذه الأزمات إلى تقسيم مدن اليونان إلى فريقين يتحاربان .

على أن كل قسم من القسمين ، كان يمثل مذهباً فكريا ، إلى جوار ما تقرره المصالح وتقضى به الضرورات .

فأثينا كانت تمثل الاتجاه نحو الديموقراطية .

واسبرطه كانت تمثل الاتجاه نحو القوة وإفناء الفرد فى الدولة .

كان طابع أثينا الفكرى يميزها ، فى حين كانت اسبرطه تتميز بطابع استبدادى يقدس القوة الغشوم ويشيد بحق صاحب القوة .

وفى هذا الجو عاش أفلاطون ، وكان قد تتلمذ على سقراط وشهد مصرعه ، واتصل بالعالم الخارجى ووقف على كثير من أسراره .

ونتيجة لدراساته وخبرته ، خرج على بنى قومه ينادى بسيادة الدولة سيادة مطلقة ، وعودة الفرد إلى مكانه الطبيعى من نظامها ، فليس للفرد صالح يختلف فى حقيقته عن صالح الدولة التى ينتمى إليها ، ورأى أفلاطون فى هذا ، الحل الوحيد لمشكلات أثينا التى أخذت ترزح تحت عوامل التمزق والانقسام والفساد .

وأخذ أفلاطون فى كتابه « الجمهورية » يناقش السوفسطائيين ، ويحاول أن يدحض بالدليل ما ذهبوا إليه من تغليب للفردية على روح الجماعة .

وقامت فلسفة أفلاطون عن الدولة ، على نظريته فى العدل . وهاله أن يذيع المتطرفون من السوفسطائيين من أمثال « كاليكليس » أن العدل يتمثل فى إرضاء الفرد لشهواته وإشباعه لرغباته ، ورأى أفلاطون أن هذه الدعوى إفساد للشباب الأثينى ، وهدم لمبادئ الأخلاق وقضاء على الوحدة الاجتماعية .

ورأى أفلاطون أن العدل لا يقوم على المتعة وإرضاء

الذات الخاصة ، بل هو صفة من صفات المواطن تصونه عن اتباع هواه ، وتهيئه إلى أن يقصر نشاطه على أداء وظيفته ليتحقق بذلك إتقانه لما يقوم به من نشاط . ويتحقق بالتالى الصالح العام .

وكانت هذه النظرية الجديدة ، تطوراً لنظام الدولة فى أثينا ، ومرحلة جديدة من مراحل التفكير فى أصلح النظم لها .

وقد دعا أفلاطون إلى توحيد نظام الدولة ، وإخضاعها لسلطة واحدة ذات سيادة ، تنبثق عن القوة الفكرية للمجتمع ، وتمثلها تمثيلا صادقاً .

ورأى أفلاطون أن السياسة هى أصعب الأمور تحصيلا وتنفيذا وأن السياسة فن يحتاج كسائر الفنون إلى حيلة الحاكم فى تصريف الأمور ولذا دعا أول الأمر إلى أن تطلق الحرية للحاكم يمارس الحكم ، ممارسة غير مقيدة بقوانين موضوعة ، حتى تتوفر لديه الحرية فى التصرف ، يعالج أمور المواطنين ، كما يعالج الطبيب مرضاه ، لا يقيده إلا ما يراه من الصالح العام .

ولكن أفلاطون نفسه ، عاد يدعو إلى اتفاق المواطنين على قواعد وقوانين تضبط الأمور بالنسبة للحاكم والمحكوم .

وكان منطقه قائماً على أننا طالما لا نعرف فى مجتمعنا شخصا

صالحا بالميلاد صلاحية فائقة لأن يتولى الأمر ، مثله فى ذلك مثل ملكة النحل . . . فلابد من الاتفاق على هذه القوانين ، لضبط قواعد المجتمع .

* * *

وهكذا كانت نظريات أفلاطون هى الوجه المقابل لدعوى غلاة السوفسطائيين فلم ير معهم أن يترك الأمر للأقوى ، ولم يوافقهم على أن العدل فى إشباع اللذة وإمتاع الجسد وتحقيق الرغبات الخاصة ، وإنما أقام المجتمع على أساس جديد ، ونظر إلى العدل نظرة جديدة ، وأقام أكبر وزن للسلطة الفكرية التى تسيطر على كل السلطات الإنسانية الأخرى ، وجعل من ممثليها وروادها حكاما يتخصصون لتحقيق الصالح العام ، وخدمة مواطنيهم ، والسهر على أرواحهم ، وتكون السيادة مطلقة للدولة ممثلة فى هؤلاء الحكام .

ونظر إلى القوانين على أنها قيود تقيد من السلطة المطلقة التى نادى بمنحها لممثلى القوى الفكرية فى المجتمع ، ولكنه مع ذلك آثر الاتفاق على مجموعة منها لضبط موازين المجتمع .

ووجد أفلاطون فى منطق السوفسطائيين إفسادا للشباب الأثينى ، وحاول علاج هذا الفساد ، لسيادة العدل ،

فى مجتمع كامل ، تتقرر فيه السيادة للدولة .

* * *

وجاء أرسطو ، تلميذ أفلاطون ، فتطور بدعوة أستاذه أفلاطون تطوراً جديداً .

ولئن كان أفلاطون قد تأثر بظروف المجتمع الأثينى الذى عاش فيه ، ودفعته هذه الظروف وما كان هذا المجتمع يرزح تحته من انقسام وفساد وانهيار إلى إقرار نظرية السيادة المطلقة .

ولئن كان أفلاطون قد واجه السوفسطائيين الذين كانوا يسعون إلى إخضاع كل شئ للصالح الخاص ، وللرغبة الخاصة ، وللشهوة .

لئن كان أفلاطون قد واجه هذه المشكلات جميعاً ، فأراد بنظرية العدل أن يبعد الخطر عن هذا المجتمع الذى عاش فيه ، وحارب غلاة السوفسطائيين بنظرية سيادة الدولة ليقضى بذلك على الفردية ، وحارب الذين آمنوا بالسوفسطائيين ، فإن ظروف أرسطو كانت غير ظروف أستاذه أفلاطون .

ولذا نجد أرسطو يتجه اتجاها آخر يدعو فيه إلى قيام الدولة الخلقية فى المجتمع .

وقد رأى أن مثل هذه الدولة لا تقوم إلا بسيادة القانون، بشرط أن يوضع مثل هذا القانون وضعا محكما دقيقا، فيعبر عن احتياجات المجتمع، ويضبط القواعد والحدود، بما ينظم العلاقة بين الناس تنظيما صحيحا وعادلا.

وأرسطو يقسم المجتمع إلى ثلاث طبقات:

الأغنياء جداً والفقراء جداً والطبقة الوسطى التي تكون الوسط بين طرفين وهو يفضل الطبقة الوسطى ويراها خير الطبقات، لأنها هي الطبقة المعتدلة التي تتفق مع نظريته في التوسط الخلقي والسياسي.

ويرى أرسطو أن إعطاء الحكم للطبقة الغنية جدا معناه إتاحة الفرصة لهذه الطبقة حتى تستبد، وتسترق الطبقات الأخرى، فإذا أعطى للطبقة الفقيرة جدا، فإنها لن تعرف كيف تدير الأمور، لطول ما قاست من الحاجة والجهل.

والدولة المثلى في نظره، هي التي تربط بين السياسة والأخلاق، وتحاول أن تقيم مجتمعاً تشيع بين أفراده روح الود والصداقة والحرية، بحيث يحسون أنهم أصدقاء يستطيعون أن يتفاهموا على أمورهم، وأن يلتقوا عند مطالب مجتمعهم.

ولهذا فإن أرسطو يسند السلطة إلى الطبقة الوسطى، وكلما كانت هذه الطبقة الوسطى كبيرة وقوية، ومتفوقة على الطبقتين

الآخرين ، كلما كان ذلك موفوراً أمكن أن يقام فى المجتمع توازن حقيقى ، يحقق الخير ، ويقيم المجتمع على قواعد الأخلاق .

إن أرسطو ينسب الفضائل الخلقية إلى الطبقة الوسطى ، ولهذا حرص على أن يوليها السلطة ، على اعتبار أنها تكون عادة كثرة المجتمع .

وقد رأى أن الحياة السعيدة ، هى الحياة الفاضلة القائمة على الخير ، والفضيلة والخير لا يتحققان مالم يتحرر الفرد من رق العقبات التى تكبله .

ومقياس الخير والفضيلة عند أرسطو دائماً هو أوساط الأشياء، لأنها دائماً فى متناول كل الأبعاد ، تستطيع أن تحققها .

وفى نظرته للدستور ، رآه وسطا من الأوساط ، يمكن ان يحقق مصلحة الجميع ، لأنه فى متناول الأبعاد جميعاً .

وكما أعطى السيادة للطبقة الوسطى فى المجتمع ، كذلك أعطى الدستور نوعا من القداسة ، بحيث يكون سلطانه فوق كل سلطان .

وقد ربط ارسطو فى كل محاولاته السياسية بالأخلاق ، فهو لا يعرف معنى للسياسة ما لم ترتبط بقواعد خلقية محكمة ، تحقق الخير للناس ، وتقيم حياتهم على الفضائل ، وتربط

تصرفاتهم بقيم وموازين يتفق عليها المجتمع .

* * *

وهكذا نجد أن فلاسفة اليونان أحاطوا فى نظراتهم السياسية ، بجميع وجهات النظر ، وجميع تطورات الإنسان ، فعرضوا فى هذه النظرات إلى سلطات الفرد وانطلاقه من كل قيد وعبثه بكل قانون ، وخروجه على كل قاعدة .

وعرضوا لنظام العدل ، وقصر هذه القوة على الذين يستحقونها من المتفوقين الأذكياء ، على أن يكونوا حقيقة صفوة فكرية تعرف حدودها ، وتقدر الصالح العام .

وتطوروا بعد ذلك إلى ربط السياسة بالأخلاق ، وآثروا أن تسود المجتمع الطبقة الوسطى ، والمقاييس الوسطى .

* * *

هل وقف الفكر الإنسانى عند هذا ، فى نظرته إلى الأخلاق ، وربطها بالسياسة ؟ .

إن تردد هذا الارتباط بين السوفسطائيين وأفلاطون وارسطو ، كان ثمرة من ثمرات التطور فى البيئة اليونانية

وتفسير أحداث هذا التطور ، واتجاهات كل فريق وفقا لمذهبه في الإصلاح ، وتقديره الخاص للمصلحة الخاصة أو العامة .

على أن هذه النظرة قد صادفت تطوراً جديداً فى عهد الرواقيين ، بعد أن تكونت أضخم دولة إغريقية فى مقدونيا ، ونجحت فى فرض سيطرتها فى عصر فيليب والإسكندر الأكبر من بعده ، وزالت أسباب الانهيار الاجتماعى التى شهدتها المدن الإغريقية فيما سبق ذلك من سنوات عجاف .

وكان لاتصال الدولة الجديدة القوية بالعالم الخارجى ، وبالحضارات الأخرى ، أكبرُ الأثر فى نشوء هذه الفلسفة الجديدة ، والدعوة إلى إقامة دولة عالمية تديرها هيئة عليا من الفلاسفة والحكماء ، تنشد المساواة والإخاء الإنسانى وتسعى إلى تثبيت الشعور بالواجب فى ضمائر الناس ، وتدعو إلى التمسك بأهداف الحكمة والفضيلة وتروض النفوس على القناعة والرضى ومقابلة أحكام القضاء والقدر بالهدوء والاطمئنان . فالكون كله وحدة واحدة منظمة تتكون من العقل أى الله ، والمادة والحوادث تسير فى دائرة طويلة ، وحينما تنتهى تبدأ من جديد ، فتتكرر الحوادث كما هى تماما وتدعو الرواقية إلى الأخوة بين

الناس بما فيهم العبيد والبرابرة ، وتؤمن بان حياة الفضيلة هى مآل الإنسان .

ووجد المثقفون والمولعون بالنزعات الفكرية غذاءهم الروحى والخلقى فى هذا المذهب ، وفيما عرف عن تعاليم الفيلسوفين : زينون وأبيقور ، خاصة ما اتسمت به تعاليمهما من طابع دينى ، ربما كان أثرا للحضارة المصرية القديمة ، بعد أن وصل المقدونيون إلى الإسكندرية .

ولعل سبب إقبال المثقفين على هذه الفلسفة الجديدة ، ما كانوا قد وصلوا إليه من ضيق بالديانات الوثنية ، وما وفره المذهب الجديد لطاقاتهم الروحية من زاد فكرى وروحى وخلقى ، يهدف إلى تحقيق السعادة فى المجتمع ، ورعاية الواجب ، وتثبيت دعائم الأخلاق .

وقد كانت فلسفة الرواقيين تتجه إلى النظرة الإنسانية الشاملة ، وتميل إلى أن يسود العالم نظام واحد ، تتوفر فيه العدالة ، ويتميز بالأخلاق .

كانت هذه الفلسفة امتداداً لما سبق أن تعرضت له الفلسفة الإغريقية من قيم ، وما حاولت أن تحققه من قواعد السلوك .

* * *

وبالرغم من أن التطور ، قد يتخذ بعد هذا أشكالا مختلفة ، فإن الحقيقة التى لا تنكر هى أن الإغريق ، كانوا قد وضعوا البذور الأولى للفلسفات وللمناقشات السياسية التى تعرضت لنظم الحكم ، أو أشكال السيادة ، أو الارتباط بين الأخلاق والسياسة فى المجتمعات .

وكانت الظروف تشكل دائماً كل اتجاه ، وتؤثر على كل مذهب ، وإن التقت جميعها عند الأسس التى وضعها فلاسفة اليونان .

« فجان بودان » الذى دعا إلى الحكم الملكى المطلق ، عندما كانت السلطة الدنيوية والدينية فى يد واحدة لم يكن يعبر إلا عن احتياجات فرنسا ، فى القرن السادس عشر .

« وتوماس هوبز » الذى شارك « بودان» الدعوة إلى هذا اللون من نظم الحكم ، كان خاضعاً للظروف التى اجتازتها انجلترا فى القرن السادس عشر كذلك .

وكلاهما كان يدعو إلى هذا النظام رغبة فى التخلص من الانقسامات والفتن والحروب التى تعرضت لها بلاده ، وأثرت على أخلاق الناس ، وأفقدتهم الثقة بقدرتهم .

والفرق بينهما أن « توماس هوبز » بنى دعوته ، على نظرية

العقد الاجتماعى ، فلما ظهر « روسو » أخذ نظرية العقد الاجتماعى ليدعو بها إلى سيادة الشعب المطلقة ، فيضع كل فرد شخصه وقوته ، فى وحدة مشتركة ، تتكون منها السلطة العليا للإدارة العامة ، ويصبح كل عضو جزءا لا يتجزأ من الكل .

ورأى « روسو » أننا بهذا نتعاقد على تكوين هيئة خلقية جماعية ، تتألف من الأعضاء الذين أعطوا أصواتهم ، واستمدت من هذا وحدتها وشخصيتها العامة ، وحياتها وإرادتها .

وعندما ظهر «هيجل» فى ألمانيا ، تأثر بانتصارات « نابليون» على قومه ، فمضى فى التيار السابق ، الذى بدأ بأرسطو وانتهى بروسو ، مع فرق واضح كبير ، وهو أنه دعا إلى إقامة الدولة القومية ، على أساس مثالى ، تسود فيه الأخلاق الفاضلة ، ويعتمد فيه الأشخاص على أنفسهم فى الحياة ، فى نطاق نظام الدولة التى تتولى مسئولياتها عنهم ، كما يتولى رب الأسرة مسئوليته عن أفراد أسرته .

وكانت دعوة هيجل إلى المثالية واضحة ، فبدأ من الأفراد فى حياتهم الخاصة ، ومضى فى تطبيق هذه المثالية حتى وصل إلى الدولة وسيادتها ، كما كانت دعوته إلى الدولة القومية قائمة على ظروف ألمانيا ، وطموحه إلى أن تتمكن بلاده من محاربة فرنسا والثأر منها والانتصار عليها .

ولهذا فإن هيجل كان خلقيا فى دعوته داخل دولته ، ولكنه ترك علاقات الدول بعضها بالبعض الآخر خاضعة لقوانين الطبيعة « البقاء حق مقرر الأقوى ، والهزيمة ثمن طبيعى للضعيف » .

ولعل هذه الفلسفة قد وحدت ألمانيا ، لكونها صبغت علاقاتها بالعالم الخارجى بلون خاص من عصر بسمارك حتى عصر النازية .

* * *

وجاء هارولد لاسكى فى هذا القرن ، ففسر الأطوار التى مر بها الذين فكروا فى نظام الدولة تفسيراً مرتبطاً بالظروف التاريخية التى مرت بأوربا فى القرن السادس عشر ، من نزاع دينى أدى إلى قيام الدولة على أسس قومية ، ورأى أن العالم وقد تخطى هذه الظروف فى القرن العشرين ، أصبح على المفكرين فيه أن يبنوا نظرية الالتزام السياسى على أساس خلقى .

ولم ير لاسكى أهمية كبيرة لقيام الدولة قياماً منفصلا عن سائر أجزاء العالم ، لأنها ستصبح فى هذه الحالة عرضاً تاريخيا ، لا حقيقة علمية .

لهذا دعا إلى أن يكون الولاء الحقيقى للعالم ، وأن تراعى فى نظمنا مصلحة البشر جميعاً ، ومن ثم اتجه لاسكى إلى إقامة حكومة عالمية ، تحل منازعات الدول ، حتى لا تحل الدول القائمة على القوميات المتطرفة مشكلاتها عن طريق الحرب ، فإن فى هذا خيانة للعقل وللأخلاق .

على أن لاسكى لم يستبعد فكرة الدولة ، ورأى فى سلطتها على أفرادها تمثيلا للإرادة الفردية ، بحيث لا تقف هذه السلطة حائلا بين الفرد وحقه فى تنمية شخصيته ووصوله إلى حد الإبداع .

ويرى لاسكى أن الدولة تقوم لمساعدة الفرد على تنمية شخصيته والتعبير عنها تعبيراً كاملا .

ويقر لاسكى مبدأ تعدد سيادة الدولة بدلا من سيادتها المطلقة كما ذهب الفلاسفة من بودان إلى هيجل ، وعلى هذا تصبح هذه السيادة عنده محدودة .

وتفسير لاسكى للسيادة يقوم على أن يكون للدولة نظام خلقى يستند إلى رضى أعضائها .

ويتخذ لاسكى السعادة مقياسا لتقرير الصلة بين الحاكم والمحكوم ، من حيث استخدام سلطة الدولة .

وخطا لاسكى خطوة إيجابية موفقة عند ما أكد الأساس الخلقى لسلطة الدولة ، وأن الدولة وسيلة لا غاية .

وهو ممن يؤمنون بالفرد ، على اعتباره صاحب الشخصية الحقيقية والقوى الخلاقة المبدعة ، ومن هنا بنى نظرياته على أساس خلقى يستمد جوهره من شخصية الفرد ، وما تتخذه هذه الشخصية من وسائل اجتماعية لتحقيق توازنها وكمالها .

وبرغم إيمان لاسكى بالفرد ، وبأن الدولة تقوم لتحقيق مصالحه وإسعاده فإنه لم يبخس الدولة حقها من تنظيم العلاقات بين الأفراد ، وتوزيع الخدمات عليهم وتنسيق ما تسفر عنه قواهم الخلاقة ، بحيث يسود المجتمع نوع من التعاون العادل بين الأفراد ، وما ينتجه هؤلاء الأفراد .

ولقد وقف هارولد لاسكى فى أعقاب الحرب الكبرى الثانية يؤيد بكل ما يستطيع من قوة ، حكومة العمال البريطانية ، وكانت سياستها الاشتراكية تهدف إلى تنظيم المجتمع عن طريق تدخل الدولة .

وبهذا نجد لاسكى وهو يدعو إلى العناية بالفرد ، والعمل على إعطائه فرص التعبير عن شخصيته وتحقيق سعادته ، يدعو فى الوقت نفسه إلى تقوية الدولة لا إلى إضعافها ، بل وإلى تدخلها لتنظيم المجتمع فى ظل حكومة اشتراكية ، هى حكومة العمال البريطانية .

وهو يفسر ذلك بأنه ليس تناقضا على الإطلاق ، فإن صالح الفرد هو مصدر كل قوة للدولة ، ومصدر كل عمل تأتيه .

ولا شك أن تأثير لاسكى قد أثر تأثيراً كبيراً على الفكر الحديث فى هذا القرن ، وكانت دعوته قائمة على تمجيد القيم

الخلقية ودعم الطاقات الروحية ، لتتيسر السعادة للبشر جميعاً ، وليستقر بينهم السلام .

* * *

على أننا لو تركنا هذه الاتجاهات جميعاً ، و نظرنا إلى عالمنا ، فى المنطقة التى نعيش فيها ، والتى نرتبط بها برباط من الود والصداقة والإخاء .

لو أننا تركنا أوربا ، والتطور التاريخى لأحداثها وفقا لظروفها ، وما كان لذلك من أثر فى اتجاهها نحو القيم الخلقية أو بعدها عنها .

لو أننا نظرنا إلى قارتى : آسيا وأفريقيا ، لهالنا ما طرأ عليها من تطور عظيم فى حياتها السياسية ، فلقد استقلت فيها دول كبيرة ، وحصلت مجموعات ضخمة من الناس على حرياتهم ، واستعادوا سيادة أوطانهم على أرضهم ، بالكفاح المضنى الدائب الذى لم ينقطع .

ففى آسيا استقلت كل من الهند والباكستان وسيلان وأندونيسيا والأردن والسعودية واليمن والعراق ولبنان وسورية وأفغانستان وإيران والصين .

وفى إفريقيا استقلت مصر والسودان والحبشة وليبيا ومراكش

وتونس وغانا وغينيا واتحـاد مالى والصومال ومدغشقر والـكونغو، وفى الغد القريب ستحصل الجزائر على استقلالها نتيجة لهذا الـكفاح الطويل المرير الذى عانته وأخلص له أبناؤها الشجعان.

كما أن هناك عددا من الدول الإفريقية التى سوف تحصل على استقلالها فى القريب العاجل .

كل هذه الدول استقلت بعد أن حققت استقلالها بالدماء ، وتضحيات الأجيال المتعاقبة من أبنائها .

ولئن كان هذا الاستقلال جليلا فإن المحافظة عليه أجل .

ولن يتيسر لدولة حديثة العهد بالاستقلال أن تحافظ على استقلالها بين الفتن والمؤامرات ، ونظرات المستعمرين القدامى المنطوية على الغيظ ، إلا إذا حافظت على وحدتها ، ووضعت حدا لانقساماتها الداخلية ، وقوّت الروابط الروحية والفـكرية بين أبنائها ، فى اتحاد خلقى قوى متين .

ولعله خيل لبعض هذه الدول ، أن تنهج مناهج السياسة الغربية ، فى النظرة إلى الديمقراطية ، دون عناية بالاختلاف البين بين الظروف ، فتركت للأحزاب حرية العمل ، على اعتبار أن ذلك هو الأساس الديمقراطى الذى تقيم عليه استقلالها .

وإذا هذه الأحزاب ، وأكثرها نشأ فى كنف الاستعمار ،

ونما فى ظل من رعايته ، وتشبع باستعمار فكرى استشرى فى تفكير قادته .

وإذا هذه الأحزاب ، تصبح هى الخطر الحقيق على وحدة الوطن ، وعلى اتحاد أبناء الوطن ، وهو المظهر الخلقى الذى يمكن أن يحمى الاستقلال ، ويصون الحرية ، ويذود عن كرامة الوطن .

وإذا تجربة الحكومات الحزبية فى مستهل استقلال هذه الدول ، تصبح كارثة تهدد أمن الدولة ، وتنذر بأن المصير المحتوم ، هو أن الاستعمار سيعود ، وأنه كان هباء ماذهب من دماء الشهداء ، وعذاب المعذبين .

على أن الأمر لم يدم طويلا ، فسرعان ماتبينت الكثرة من هذه الدول أن الإبقاء على الاستقلال أجل كثيراً من الإبقاء على النظام الحزبى ، وأن اتحاد الأمة ضرورة خلقية من الضرورات التى تحتمها المناعة ضد إغراء المتآمرين .

وكانت النتيجة أن عادت أكثر هذه الدول تنظر إلى ظروفها لتقيس عليها احتياجاتها الوطنية ، واحتياجاتها الخلقية ، فتبنى اتحادها من عناصر واقعها ، لاتستورده ، ولا تسمح لعنصر

غريب عن طبيعة الحياة فيها ، أن يتسلل إلى ضميرها ليقيد هذا الضمير ، بعد أن تحرر وأفاق .

ولنأخذ باكستان مثلا .

لقد مرت بتجربة الحياة الحزبية ، فأصبح فيها عدد من الأحزاب يتنافس على كراسى الحكم ، توجهه قوى من خارج البلاد ، بل من دولة الاحتلال القديم ، فلم يكن بد من أن تتدخل القوات المسلحة ، لتستولى على الحكم ، وليعلن الرئيس أيوب خان أن النظام الجديد سيعيد الحكم الديموقراطى الصحيح ، ولكن بالأسلوب الذى يفهمه الشعب ويفيد منه .

ولم يكن أمام صحف بريطانيا إلا أن تعترف بأن هذه الثورة كانت نتيجة من نتائج تدخلها عن طريق الأحزاب .

وفى ٢٧ أكتوبر ١٩٥٩ ، بعد عام من تولى الرئيس أيوب خان السلطة أعلن بداية الخطوات فى طريق التنظيم الجديد فى باكستان ، وهو ما أطلق عليه نظام « الديموقراطيات الأساسية » .

ويستهدف هذا النظام تحقيق الحكم الذاتى للشعب ، بكل مستوياته ابتداء من القاعدة فى مجالس القرى ، ثم مجالس المقاطعات ، ثم مجالس المراكز ، ثم المجالس الإقليمية ، وينتهى

هذا النظام إلى قمته فى المجلسين الاستشاريين للتنمية فى المقاطعتين اللتين تتألف منهما باكستان .

وهكذا وجدت باكستان أن عليها أن تجد الطريق إلى حل مشكلاتها .

جربت الأحزاب ، فسادت الانتهازية بين الحزبيين ، وخضعت الموازين للعامل الخاص ، والمنفعة الخاصة .

وضاق الشعب بالحال ، ولم تكن هناك وسيلة للتعبير عن هذا الضيق إلا أن تقوم ثورة تستولى على الحكم ، وتتولى الأمر ، وتضع النظام الذى يتفق مع طبيعة البلاد ويوحد صفوف أبنائها ، ويمكّن للقيم الخلقية أن تسود ، مما يجعلهم أقدر على حماية استقلالهم والدفاع عن حريتهم .

وفى أندونيسيا أدت التجربة إلى انقسام خطير فى صفوف أبناء الشعب الأندونيسى ، وأخذ قادة الأحزاب يتنازعون مناصب الحزب ، وانتهى الأمر بأن أعلن الرئيس سوكارنو إنذاره لرجال الأحزاب ، بأن يراعوا مصلحة الوطن ، وأن يضعوها فى الاعتبار الأول .

واضطر الرئيس سوكارنو إلى حل البرلمان ، وتعيين برلمان آخر ، كما اضطر إلى تنفيذ لون من ألوان الديمقراطية ، أطلق

عليه « الديمقراطية الموجهة » وكون مجلساً استشاريا يسدى المشورة لمجلس الوزراء ، ويصبح على البرلمان أن يضع التشريعات لما يتقرر من مشروعات .

وقد وصف الرئيس سوكارنو الحال فى ظل الانقسام الحزبى، بأنها استمرار للاستعمار الغربى فى أندونيسيا، وطالب بأن يتحد المواطنون ، على أساس من القيم الخلقية ، للنهوض بالبلاد ، وتخليصها من هذه التيارات الغربية الضارة .

* * *

وفى الهند نادى نارايان الزعيم السابق للحزب الاشتراكي الهندى ، بنظام التدرج بين مختلف المجالس ، ابتداء من مجالس القرى ، إلى مجالس المراكز ، إلى مجالس الأقاليم ، إلى مجلس الدولة .

وطالب بأن يتم انتخاب أعضاء هذه المجالس على أساس الكفاية الشخصية لسائر المواطنين ، لا على أساس ترشيحات الأحزاب .

ويقول نارايان إن كل المشروعات والأنظمة المأخوذة عن الغرب لن تؤدى إلى نتيجة ما ، وإن نظمنا يجب أن تنبع من بيئتنا ، ومن نظام حياتنا .

ولولا أن حزب المؤتمر فى الهند يرتبط بتاريخ طويل فى الكفاح .

لولا هذا لظهرت فى الهندعلامات جديدة ، لتطور جديد ، نحو الاتحاد ، والاعتماد فى نظم الحكم على ما توارثته هذه الدول من حضارات قديمة قائمة على نوع من الصوفية الخلقية هى أساس القيم الخلقية التى تسود هذه المنطقة من العالم .

* * *

أما فى إفريقيا فإن تجربة السودان ، وثورته على الانقسام الحزبى لا تزال ماثلة فى الأذهان ، تمر بدورها الطبيعى فى طريق الاتحاد القائم على القيم الخلقية الموروثة .

كذلك فى غينيا ، وقف الشعب صفا واحداً خلف زعيمه سيكوتورى ، وهو يتحدى دى جول ، عندما زار غينيا فى سنة ١٩٥٨ ، ويعلن باسم الشعب أن غينيا تفضل الفقر مع الحرية ، على الغنى مع العبودية . ولقد ناشد سيكوتورى شعبه الاتحاد قبل الاستقلال ، فإن الاتحاد فى الضراء هو أساس الاتحاد فى السراء.

ونالت غينيا استقلالها ، واندمج حزب الكتلة الإفريقية وهو حزب المعارضة فى الحزب الديموقراطى برياسة سيكوتورى ،

ليتكون من هذا الاندماج ، اتحاد وطنى قومى لشعب غينيا كله .

وقد وصف سيكوتورى هذه التجربة بأنها إفريقية خالصة ، هدفها الإبقاء على وحدة الشعب ليحقق مطالبه دون اهتمام بأى اعتبار مذهبي .

وفى غانا مجالس فى القرى ينتخب الرجال والنساء أعضاءها ، وهناك مجالس للمحافظات ، ثم مجلس وطنى واحد .

وفى نطاق هذه المجالس يستطيع الشعب أن يقرر مصيره .

وفى غانا حرص الرئيس نكروما منذ بداية الاستقلال على وحدة بلاده بقيادة حزب المؤتمر الشعبي ، لتكون هذه الوحدة عاملا فعالا فى دعم استقلال البلاد ، وفى العمل على استقلال إفريقيا كلها .

ولقد ظهر بوضوح أن دستور غانا يهدف إلى تأكيد هذا الاتحاد بين أبناء الشعب ، لما ينطوى عليه من قيم خلقية ضرورية لبناء المجتمع بناء سليما .

وأكد الرئيس نكرومافى أحاديث مختلفة أن حزب المؤتمر الشعبي ، يضم شعب غانا كله ، وأن المنظمات والهيئات على اختلافها

ممثلة فيه تمثيلا كافياً ، ضماناً لأن يكون هذا الاتحاد تعبيراً صادقاً عن الجماعة كلها .

* * *

وهكذا نرى فى دول قارتى آسيا وأفريقيا اتجاهات جديدة بعد ما مرت به من كفاح طويل ، ثم بعد ما مرت به من فترات القلق فى تاريخها وبعد أن تم لها الاستقلال .

فلقد انخدع بعضها بالديموقراطية الغربية ، القائمة على الصراع الحزبى .

وانخدع بعضها بما للأحزاب فى هذه البلاد من تاريخ فى الكفاح .

وتصورت شعوب هذه البلاد ، أنه من الممكن أن تمضى الأمور على هذا النحو فى عهد الاستقلال .

على أن مطالب الناس بعد الاستقلال تختلف دائماً عنها قبل الاستقلال .

ففى فترة الكفاح الوطنى لتحرير الوطن ، لا يتطلع الشعب عادة إلا إلى تحقيق استقلال بلاده ، أما بعد أن تستقل ، وتجلو

عن أرضها قوات الاحتلال ، فإن الطبيعى هو أن تزداد آمال الناس فى الاستقرار ، وفى النمو ، وفى الرخاء .

وهذا لن يتأتى بالخلافات بين قادة الأحزاب ، ولن يتوفر بين جشع المطامع الخاصة ، ولن يتحقق فى جو من فساد الذمة وفساد الضمير .

وتسود أبناء الشعب عندئذ حالة من القلق النفسى تجعلهم يتطلعون إلى وسيلة للإنقاذ . وتتوفر الوسيلة بلا شك ، فإن الشعوب لا تستطيع أن تطاول المتلاعبين بقضاياها ، المستغلين لموارد البلاد ، أكثر مما ينبغى .

وعندما تتوفر هذه الوسيلة ، تتجه الأنظار إلى القيم الخلقية ، تسعى لإقرارها فى القلوب ، وفى الضمائر .

ومظهر هذه القيم لا يتخذ شكلا سياسيا ، إلا فى وحدة الصفوف ، وفى انتظام المجموع ، فى اتحاد قوى متين ، يتساند فيه الجميع ، من أجل غاية واحدة ، هى تحقيق الصالح العام .

وعندئذ تظهر لهذا الاتحاد أشكال مختلفة ، وفقاً لطبيعة كل بلد ، وظروفه التاريخية ، وتقاليده الموروثة .

* * *

وفى شعوبنا ، حيث قامت الحضارات على قيم من الأخلاق

الفاضلة ، وحيث كان السلوك الخاص ، هو أساس كل المدنيات .

فى هذه المنطقة من العالم ، حيث نزلت الديانات ، وهبطت رسالات السماء .

فى أرضنا حيث سالت دماء الشهداء ، دفاعاً عن معانى الكرامة والشرف والفداء .

فى هـذه الشعوب ، وفى هـذه المنطقة ، وفى هذه الأرض يصبح طابع الأخـلاق هو الطابع المميز لحياتنا الموجه لبناء مستقبلنا .

ولئن كان الرسول محمد صلوات الله عليه قد بعث ليتمم مكارم الأخلاق ، فإننا فى إثره لم نتوان عن البحث عن الطريق الذى يقودنا إلى قيم خلقية تصون وجودنا وتذود عنا ما لقيناه من ويل ، وما تعرضنا له من محن .

وكان الاتحاد القومى ، مظهراً لاتجاهنا نحو القيم الخلقية الجديدة ، فى مجتمعنا الحر الجديد .

إنما الأمم الأخلاق

على أن موجة القلق التى سادت العالم ، منذ بدأت المناقشات فى أشكال الحكم وحق السيادة ، منذ دب الخلاف بين أنصار نظرية إطلاق سلطات الفرد حتى يشبع رغباته ويملأ حاجات نفسه ، وأنصار نظرية المجتمع وسيادة الدولة ، وهل تكون مطلقة أم مقيدة ، بقيود من الدستور ، أو من النظرة المثالية إلى معنى الدولة ، أو من سلطات أخرى أو تنظيمات أخرى ، نشأت مع التعقيد الاقتصادى والاجتماعى .

هذه الموجة التى بدأت بسقراط وأفلاطون وأرسطو ، والسوفسطائيين والرواقيين ثم سادت أوربا فى القرون الوسطى ، فتعرض لها بوذا وروسو وهيجل ولاسكى فيما بعد ذلك .

هذه الموجة من القلق والشك والخوف على مصير الإنسان ، والرغبة فى توفير أكبر قسط من السعادة له .

هذه الموجة التى تردد الذين عرضوا لها بين السياسة والأخلاق ، فربطوا بينهما حيناً وفرقوا بينهما حيناً آخر .

هذه الموجة التى تسللت إلى عالمنا فى قارتى آسيا وإفريقيا ،

مع جنود الاحتلال ، وما جلبه جنود الاحتلال معهم من الجهل والفقر والمرض والخوف والأحزاب .

هذه الموجة ما كان لها أن تستمر فى بلاد دفعت الدم ثمناً للاستقلال ، وما كان لها أن تتجاهل مابذلته من تضحيات ، فى سبيل مثل مستوردة ، أو قيم دخيلة ، أو نظريات تنتهى آخر الأمر بالضعف ، والهوان ، وما ينتج عن الضعف وعن الهوان من عودة الاحتلال ، إن لم يكن بالجنود ، فبالأفكار والآراء والسيطرة الفكرية .

ولقد انحسرت هذه الموجة فى كل الدول القريبة العهد بالاستقلال فى قارتى آسيا وإفريقيا ، وهب على هاتين القارتين ، تيار نابض بالحركة والحياة ، يحمل مبادىء الأخلاق ، وينطوى على التمسك بالقيم ، ويلخص هذه المبادىء وهذه القيم فى شىء واحد هو اتحاد الصفوف ، واجتماع الكلمة ، والنداء الواحد بالهدف الواحد فى المجتمع الواحد للصالح العام .

* * *

ولقد كانت ثورتنا طليعة هذه الدعوة ، فمنذ اندلعت الثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ومجلس الثورة ينادى أبناء الشعب أن يتحدوا ، وأبناء الشعب يلبون النداء ، فيقبلون على الدعوة الجديدة ، بالحماسة نفسها التى أقبلوا بها على الثورة

النابضة القوية الصادقة ، المعبرة عن آمال الأمس ، وأحلام الأجيال .

ولما نجحت دعوة الثورة ، اتسع نطاق الاتحاد ، واتسع نطاق القيم الخلقية الأصيلة فى هذا الشعب ، فانتقل من داخل مجلس الثورة إلى مجموع الشعب .

وامتحنت الأخلاق الجديدة أصعب امتحان ، وتعرضت لأدق محنة يتعرض لها شعب تواق إلى الحرية والتحرر والاستقلال .

وكان ذلك خلال العدوان .

ولما نجحت القيم الجديدة ، واتحدت الكلمة فى رد هذا العدوان ، سرت فى العالم موجة من الدهشة والعجب .

ولكن الذين كانوا يترسمون خطانا على الطريق ، رأوا أن هذا هو خير طريق إلى الهدف : الاتحاد ، القائم على الأخلاق .

فإذا دول آسيا وإفريقيا الناهضة ، والتى انتزعت حقها من الحرية والاستقلال ، تبدأ غداة النصر ، تفيد من تجارب الثورة العربية الجارفة ، وتطبق مبادئها بلا خوف أو تردد ،

بعد أن ثبت على الأيام أن هذا هو الطريق السليم ، الذى يقود إلى الغاية المثلى .

وكانت وحدة الإقليمين فى سورية ومصر ، دليلا جديداً على أن الطريق الجديد ، هو خير الطرق وأسلمها .

وشاعت الدعوة فى كل مكان ، وتنادى بها الأحرار هنا وهناك ، وأحست الدول الاستعمارية القديمة أن الأوان قد آن ؛ لتغير من نظرتها إلى هذه الدول ، فلا تظل ترنو إليها بالغل والحقد والمؤامرة ، فإن ذلك لن يجديها قليلا أو كثيراً ، وخير للإنسانية وللعالم أن يعترف بالأمر الواقع ، بل أن يعترف كل آثم بإثمه ، ويقدم الدليل على أن غده يختلف عن ماضيه .

وعندئذ يمكن أن تسود العالم روح أخرى جديدة . أساسها الأخلاق .

* * *

وهل الاتحاد القومي هذا ، إلا خلاصة تجاربنا ، وثمرة كفاح طويل لإقرار قواعد الأخلاق .

إن القصد من هذا الكتاب كما قلت فى أوله ، ليس شرح منظمات الاتحاد القومى ، فقد عشنا هذه التجربة من أولها ، واليوم يجنى الشعب ثمراتها .

وكلنا يعرف أن فكرة الاتحاد القومى ، هو أن يشترك الشعب ، بكل طبقاته ، وكل طاقاته ، فى تقرير مصيره ، وفى إبداء الرأى ، وإسداء النصح ، وتوجيه الحكم ، إلى ما يحقق للإنسان العربى فى جمهوريتنا السعادة والرخاء وراحة البال .

هو أن يرتبط الشعب بكل طبقاته ، وكل مستوياته ، بمصالح واحدة ومنهج واحد ، وطريق واحد ، دون أن تفرقه عصبية الطبقات أو يبدد وحدته تحكم المصالح الخاصة . وهو أن ينتظم الشعب كله ، فى اتحاد كامل يواجه غده بالشجاعة نفسها التى واجه بها أمسه ، والتى استطاع بها أن يخضع الأحداث لإرادته .

ولئن كانت مقتضيات التنظيم قد انتهت إلى إقامة وحدات صغرى ينتخبها الشعب كله ، حسبما يقدره من الكفاية الخاصة ، لا حسبما تقرره الأحزاب أو الهيئات أو المنظمات ، ثم تتدرج هذه الوحدات فتتسع فى وحدات أكبر ، ثم أكبر ، تنتهى آخر الأمر إلى المؤتمر العام للاتحاد القومى ، وعنه تنبثق الرغبات وتصدر التوصيات ، تظهر إرادة الفرد ، فى إرادة الجماعة ، إرادة صلبة ، تنتقل إلى مجلس الأمة ليعبر عنها بالتشريع ، وإلى الحكومة لتعبر عنها بالتنفيذ .

لئن كانت مقتضيات التنظيم قد انتهت إلى هذا ، فإن الحقيقة

الأساسية هى أننا نريد اتحادا لإرادتنا ، ولمجتمعنا يرتفع إلى مستوى ما نواجه اليوم من مسئولية ، وما حققناه لأنفسنا من انتصارات .

* * *

وقد يكون التراخى عن العمل مثلا ، أحب إلى النفس من الجهد المضنى فيه ، كذلك الخطأ وكذلك الشر لو توسعنا فى الاستنتاج ، وفى مجتمع لا يزال يتردد بين عوامل الخير ودوافع الشر .

أما التزام الجادة والسلوك المستقيم والعمل الصالح والصدق والأمانة وتقديس القيم الخلقية ، فهو شىء يحتاج إلى مناعة وقوة ، وطاقة فكرية من نوع خاص ، تعرف حدودها ، وتفرض احترام هذه القواعد فى نفوس أصحابها .

والنظرة الأنانية قد تسللت إلى مجتمعنا فأثرت فى كثير من أفراده ، وأسفرت هذه النظرة عن وجود كثير من الانتهازيين ، فى شتى مرافق حياتنا .

وأسلوب هؤلاء وأولئك فى الحياة ، أسلوب عقيم بليد ، لا يرعى شيئاً إلا تحقيق المتعة الخاصة ، ولو على حساب حقوق الآخرين .

والشيء الخطير ليس في وجود هذا النفر من الناس بيننا ، ولكن فيما يضربونه للناس من أمثال ، وما يثيرونه في نفوسهم من تحريك الرغبات الدنيا فتحاول بدورها أن تعبر عن نفسها بإشباع هذه الرغبات ، بدلا من تهذيبها والارتفاع بها ، والتوفيق بينها وبين الرغبات السامية في الإنسان .

ومن الرغبات الدنيا في الإنسان : الفردية المسرفة ، والانتهازية والنفاق الاجتماعي ، والسطحية في أسلوب الحياة .

والتعبير عن هذه الرغبات يؤدي إلى انهيار خلقي ، فيما يتخذه الفرد من سلوك اجتماعي ، وما يؤثر به عن طريق هذا السلوك في نفسية الجماعة .

أما الاتحاد القومي بمعناه النقي الطاهر ، المنزه عن النزوات ، البريء من الشبهات ، الخالي من الأغراض ، المتسامي عن البغضاء والأحقاد ، الذي يفيض حبا وودا وسلاما وأملا ورجاء ، فهو حقا سيكون الإرادة الملية المنظمة المعبرة عن طاقات الأفراد ورغباتهم السامية الموجهة إلى تحقيق سعادة الإنسان ورخائه والارتفاع بمستوى حياته . وهو الطاقة الجماعية لضمير أمة ، تريد أن تحيا حياة منظمة فاضلة شريفة ، وهو التصوير الصحيح السليم والواقعي لقيمنا الخلقية .

هذا الاتحاد القومى على صورته تلك المرجوة المنشودة ، يعتبر بلا شك أطهر الطرق وأسلمها إلى حياة المستقبل الذى تتطلع إليه .

وهو مستقبل سيكتب له بإذن الله التحرر من الخوف ، والتحرر من الحاجة ، يقرره الشعب بكل طاقاته وكل قدراته ، وكل إمكانياته ... وكل كفاياته ، للشعب كله حق فيه ، وللشعب كله أن يقرر على مختلف مستوياته منظمات هذا الاتحاد .

و به وعن طريقه سنقضى على آثار الماضى الفاسدة ، وسنطهر النفوس التى التوى بها القصد أو لوتها الانحرافات ، أو طغت عليها عوامل الانتهازية والفردية وإشباع الشهوات على حساب المجموع .

إن روح الجماعة الطاهرة الشريفة ، قادرة دائماً على أن تصهر هذه العناصر الخبيثة ، فإذا حاولت بعد ذلك أن تظل على مذهبها المستهين بالقيم ، المستهين بقواعد الأخلاق ، فمصيرها حتما أن تنزوى فى ركن بعيد ، وأن تكف شرورها عن المجتمع الجديد النابض بالأخلاق ، الملىء بالمثل ، المتطلع إلى الغايات الكبار .

* * *

أما المستويات المختلفة فى الاتحاد ، فهى إرادة هذا الشعب وضميره ، ومهما كانت هذه الإرادة ساذجة أو يسيرة ، فهى نفسها الإرادة التى حاربت الاستعمار ، فى القرية وفى المدينة على حد سواء .

وسنشهد فى بلادنا تطوراً هائلا .

وستنطلق مع أهازيج القرية وأغانيها ، أصوات الإصلاح .

وستعرف هـــذه القلوب التى حرمها الاستعمار والقصر والأحزاب كل حق إلا حق العــذاب ، طريقاً آخر غير طريق العذاب .

ستعرف كيف تصور حياتها فى وحداتها الصغيرة ، وكيف تصور آمالها ، وكيف تصوغ ذلك جميعه ، فى مطالب محددة ، تنتهى آخر الأمر إلى السلطات المشرعة فتضعها فى قوانين ، والسلطات الحاكمة فتضعها فى أعمال .

والعرق الذى تصبب من جبين الفلاح زمناً طويلا ليتجمد أموالا تنفق فى حلقات الميسر ، والجوع والعطش والعرى ، الذى أحاط بحياة الفلاح أجيالا ثمناً لشهوات الإقطاعيين .

هذا العرق ، سيرتد إلى الفلاح نفسه فى قريته ، فيشهد شيئاً

غير ما كان يشهد من قبل ، وسيرى بعينيه أن الحلم الذى طالما تمناه من قبل أصبح واقعاً فى دنياه .

أما جوعه وأما عطشه وأما عريه ، فسيصبح كل هذا عن قريب أضغاث أحلام .

فإن طلب منه المجتمع الخلقى الجديد نوعاً من أنواع التضحية ، فهى تضحية تعود عليه فى إطار الإرادة الجماعية الشاملة .

وإذا طلب منه المجتمع الخلقى الجديد نوعاً من أنواع الصبر فى الحصول على حاجاته ، فهو صبر لا يمليه التضليل ، ولا عوامل الخداع ، ولكن تمليه احتياجات أخرى قد تسبق احتياجاته هو ، كضرورة من ضروريات التنظيم العام .

* * *

كذلك العامل ، وكذلك الموظف الصغير . وكذلك المرأة فى بيتها ، وكذلك الطالب فى معهده .

كل إنسان فى هذا المجتمع شريك فى البناء وشريك فى مسئولية توفير الرخاء .

وشريك كذلك فى أن يكون على الدوام متنبهاً للأحداث ، يقظاً لما يدور حواليه من أمور ، حتى إذا ما جد الجد ، وقامت فى العالم فتنة ، كان أصلب عوداً من أن يجرفه التيار .

ويومها سيدافع عن ثروة يمتلكها ، وعن مصير يعرفه ، وعن غد تحدده إرادته وعن مستقبل منبثق من مشيئته .

يومها سيحمى مفهومات جديدة وقيما خلقية جديدة ، جديرة بأية تضحية قد يبذلها ، وأى نوع من أنواع الفداء ، يقدم عليه .

ويومها سيدرك أن المجتمع الذى قام على الأخلاق ، لن يسمح بأن تهدر تضحياته أو ينساها ، وإنما سيذكرها على الدوام ، رعاية له إن أصيب ، ولأبنائه إن وصلت تضحيته إلى حد الاستشهاد .

* * *

ولعلنا بعد هذا نستطيع أن نعرف الاتحاد القومى الذى ظفرنا به ، على أنه فلسفة خلقية .

ولئن كانت مقدمات الاتحاد توحى بنتائجه ، فإن ما حققه لنا فى ثمانى سنوات كاف للوقوف أمام مجموعة ضخمة من الأعمال كان واحد منها يكفى ليملأ حياة جيل من الأجيال .

ففى هذه السنوات الثمانية تحقق لنا فى ظل مجتمعنا الجديد ، واتحادنا القومى وتحت القيادة الرشيدة لبطل ثورتنا جمال عبد الناصر أن تمكن الشعب وجيش الشعب من عزل الملك الفاسد ، وتغيير نظام الحكم وإعلان الجمهورية وإصدار قانون

الإصلاح الزراعى ليحدد من سلطة الإقطاع وإلغاء الألقاب ليسوى بين الناس فى الحقوق والواجبات وتطهير أرض الوطن من الاحتلال الأجنبي ، ثم دخل فى تجربة مريرة من أجل تحقيق الرفاهية للشعب،يوم قرر بناءأضخم مشروع ينظم مياه النيل وهو مشروع السدالعالى،وخاض معارك المقاطعة ؛ والحصار الاقتصادى ؛ وحرب حظر السلاح لإضعاف شوكته والفت فى عضده .

وأعلن برغم هذا سياسة الحياد الإيجابى والتعايش السلمى ، والحرب ضد الأحلاف . ولم يصرفه الخطر عن إعلان دستور الشعب ، وتعرض لمحنة المؤامرة فأمم قناة السويس ، وكانت هى القلعة الأخيرة من قلاع الاستعمار فى أرض الوطن . وابتلى بالمعتدين الثلاثة المتآمرين ، فصمد ضد القوى الطائشة يدفع عن نفسه الخطر فى عزم وصلابة .

وانتصر ، وكسب العالم الحر إلى جواره ، وخلص الاقتصاد من المتآمرين الذين كانوا يزحمونــا فى وجودنا السياسى والاقتصادى على مر الأجيال ، وأعلن الوحدة بين إقليمى الجمهورية العربية المتحدة ، وأخذ يبنى باليمين ، ويدفع عن نفسه الأخطار بالشمال ، حتى تولدت عنده طاقة فائقة لمقاومة الخطر ، أيا كان هذا الخطر .

إلى كثير مما تم من بناء الأمة ، وإقامة المجتمع على أساس ديموقراطى اشتراكى تعاونى مظهره العمل الدائب المستمر والمشروعات الضخمة التى تم تنفيذها بالفعل وتلك التى فى سبيل التنفيذ ، كل هذا تم فى جيل ، بل فى بعض جيل . . . فى ثمانى سنوات من عمر هذا الجيل ، بعد أن عشنا أعماراً وأجيالا نترقب شيئاً من هذا ، يظهر مرة كالومض ثم يختفى مرة ثانية كالسراب.

هذا لأننا اتحدنا .

ولأننا اتجهنا إلى أصلنا العريق ، فى اتخاذ الأخلاق أساساً لبناء مجتمعنا .

ولأن إرادة الله هيأت لنا قائداً – على مستوى من الأخلاق – كفيلا برعاية مقدساتنا مستعدا دائماً لأن يتقدم صفوفنا إلى التضحية والبذل والفداء .

لتبقى وحدة مجتمعنا سليمة شريفة طاهرة .

وليبق اتحادنا يجمعنا بفلسفته الخلقية .

المكتبة الثقافية

تحقق اشـــتراكية الثقافة

صدر منها للآن :

١ ـــ الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين	للأستاذ عباس محمود العقاد
٢ ـــ الاشتراكية والشيوعية	للأستاذ على أدهم
٣ ـــ الظاهر بيبرس فى القصص الشعبي	دكتور عبدالحميد يونس
٤ ـــ قصة التطور	دكتور أنور عبد العليم
٥ ـــ طب وسحر	دكتور پول غليونجى
٦ ـــ فجـــر القصة	للأستاذ يحيي حقى
٧ ـــ الشرق الفنان	دكتور زكى نجيب محمود
٨ ـــ رمضــان	للأستاذحسن عبدالوهاب
٩ ـــ أعلام الصحابة	للأستاذ محمـــد خالد

١٠ — الشرق والإسلام ... ... للأستاذ عبد الرحمن صدقى
للدكتور جمال الدين

١١ — المريخ ... ... للدكتور محمود خيرى على

١٢ — فن الشعر ... ... للدكتور محمد مندور

١٣ — الاقتصاد السياسى ... ... للأستاذ أحمد محمود عبد الخالق

١٤ — الصحافة المصرية ... ... للدكتور عبد اللطيف حمزه

١٥ — التخطيط القومى ... للدكتور ابراهيم حلمى عبد الرحمن

١٦ — اتحادنا فلسفة خلقية ... ... للدكتور ثروت عكاشه

الثمن قرشان فقط



المكتبة الثقافية

- أول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة
- تيسر لكل قارىء أن يقيم فى بيته مكتبة جامعة تحوى جميع ألوان المعرفة بأقلام أساتذة متخصصين وبقرشين لكل كتاب .
- تصدر مرتين كل شهر . فى أوله وفى منتصفه

الكتاب القادم

اشتراكية بلدنا

للأستاذ عبد المنعم الصاوى

دار القلم بالقاهرة

الثمن ٢ ص